المحسن البديعي
وأثره
في إقامة المعنى وبلاغة التراكيب
الأدعية النبوية نموذجاً

إعداد

د/ علي عبد الكريم مبروك إبراهيم

مدرس البلاغة والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

بجامعة الأزهر بالقاهرة.

المحسن البديعي وأثره في إقامة المعنى وبلاغة التراكيب الأدعية النبوية نموذجا

علي عبد الكريم مبروك إبراهيم

قسم اللغة العربية، البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر.

البريد الالكترونى: Aliibrahim١٥٩١.el@azhar.edu.eg

ملخص:

هدفت الدراسة إلى إبراز ما للمحسن البديعي من أثر في بلاغة التراكيب وتماسكها واتخذت من الأدعية النبوية الشريفة نموذجًا للدراسة لما شاع فيها من محسنات جعلتها قريبة التناول، طيعة للسان، مريحة للآذان..... واستخدمت الدراسة المنهج التحليلي وذلك بتحليل المفردات والتراكيب للوقوف على ما للمحسن البديعي من أثر في بلاغتها ومطابقتها لمقتضى الحال، ومن أهم النتائج التي توصل إليها البحث أن هذه المحسنات لم تكن مجرد زخارف لفظية جاءت لتنميق الألفاظ بمعزل عن المعاني والتراكيب، بل إنها من مقومات المعنى وداعمة له، وبدونها يسقط المعنى ويتهاوى، بالإضافة إلى ذلك فالمحسن البديعي وسيلة من الوسائل التي تساعد في إنجاح عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب؛ ذلك أنه عامل من عوامل جذب الانتباه وبه يتجديد نشاط المخاطب. وينبغي أن لا تستعمل تلك المحسنات في الكلام استعمالًا عشوائيا دون أن يستدعيها الحال ويتطلبها المقام، وإلا كان ضررها أكثر من نفعها، وكانت عبئًا على الألفاظ والمعاني

الكلمات المفتاحية: المحسن، البديعي، الأدعية، بلاغة .

"Al-muhasin Al-badi'i[1]" and its Significance on Assigning Meaning and Rhetoric of Syntactic Structures: Prophetic Supplications as a Model

Ali Abdul-Kareem Mabrouk Ibrahim

Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies For Boys, Al-Azhar University.

Email:Aliibrahim١٥٩١.el@azhar.edu.eg

Abstract:

The present study aims at spotlighting the significance of 'al-muhasin al-badi'i' on the rhetoric of syntactic structures and their coherence. It employs the noble Prophetic supplications as a case study because they are full of 'al-muhasin al-badi'i' that in turn has made these supplications easy, catchy, and soothing for ears. The study adopts an analytical approach. It analyzes lexis, and structures to examine the significance of 'al-muhasin al-badi'i' on their rhetorical effect, and on their appropriateness of the situation. The most important conclusions include the following. The use of 'al-muhasin al-badi'i' is not regarded as merely verbal embellishment to beautify lexis in isolation from meanings and structures; rather it is part and parcel of meaning without which meaning is wasted and lost. In addition, 'al-muhasin al-badi'i' is a means that helps to make the process of communication effective between the addresser and the addressee; because it attracts the attention of the addressee and renews his interest. The use of 'al-muhasin al-badi'i' should not be random without being appropriately needed in the context of situation; otherwise, it will be harmful not beneficial and it will be a burden on lexis and meanings.

Keywords: Embellishme ,al-muhasin , al-badi ,ill rhetoric, supplications.

[1] A rhetorical device used to beautify meaning in the Arabic language.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، والصلاة والسلام على من آتاه الله جوامع الكلم، فكان بحق أفصح من أبان وأبلغ من نطق، وشهد بفضله العرب والعجم، فبلاغته ظاهرةٌ للعيان أقرَّ بها القاصي والدان، يكفيه فخرًا مدح الله له بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم/٣] فهو لا ينطق إلا بحقٍ، ولا يصدر إلا عن حقٍ، كلامه بعيد عن التكلف، منزه عن التعقيد والتشدق والتقعر، وكيف يكون في كلامه تعقيد أو تكلف؟! ومثل هذا يتنافى مع مهمته وهي الدعوة إلى الله، والتبليغ عن الله، وتلك المهمة الجليلة تحتاج أكثر ما تحتاج إلى بيان لا غموض فيه، ولا تصنع أو تكلف يشينه ويضعفه.

فلم يكن –صلى الله عليه وسلم– يتكلف القول، ولا يقصد إلى توشيته وتزيينه، ولا يبغي إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ في المعنى الذي يريده، ولا يجعل المعاني تبعًا للألفاظ، وإنما يجمع في كلامه بين جلال المعنى وجمال اللفظ.(١)

ومن هنا جاء كلامه –صلى الله عليه وسلم– متميزًا بالوضوح، جاذبًا للقلوب، مؤثرًا في النفوس، مراعيًا للعقول على اختلاف درجاتها وتفاوتها، فيه من الزينة اللفظية غير المتكلفة، والمعنى الجزل البديع، ما يجعل العبارة يتسابق فيها اللفظ والمعنى، فيصلان إلى القلب بل ويعملان فيه دون أن

(١) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: التاسعة١٣٩٣هـ.١٩٧٣م. ص٢٨٢.

يحجزهما حاجزٌ، أو يحول بينهما حائلٌ، والناظر في كلام النبي – صلى الله عليه وسلم– لاسيما أدعيته المأثورة يلاحظ هذا الأمر بجلاء، حيث يجد لذةً يستشعر بردها في قلبه، وراحةً يرى أثرها على وجهه، وانبساطًا ونشاطًا في نفسه، فإذا ما حاول البحث عن سبب تلك اللذة، وهذه الراحة وهذا النشاط والانبساط، أهو راجع للفظ أم للمعنى أم لهما معا أم راجع لشيء آخر مكمل لهما أو لشيء خارج عنهما؟!، أي سر يحويه هذا الكلام؟! وأي طاقة إيجابية يشتمل عليها؟! وأي روح تسري فيه؟!، إنها روح الوحي، وسرُّ التأييد والتوفيق، وهذا ما أكده الرافعي بقوله: " ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له – صلى الله عليه وسلم– إلا توفيقًا من الله وتوقيفًا..." (١)

ورحم الله الجاحظ إذ يقول متحدثًا عن بلاغته – صلى الله عليه وسلم–: " فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته"(٢).

وكثيرًا ما كنت أقرأ الأدعية النبوية المأثورة فأجد تلك المعاني التي ذكرها الجاحظ، فهي بحقٍ قد ألقى الله عليها المحبة، ووضع لها القبول، وجمع لها بين المهابة والحلاوة والجلال والجمال، ومما يسترعي الانتباه في تلك الأدعية، شيوع المحسنات البديعية فيها بصورةٍ لافتةٍ وواضحةٍ عن غيرها من الأحاديث، مما يجعلها سهلةَ الحفظ، قريبةَ التناول، طيعةً للسان، مريحةً للآذان، باعثةً للاطمئنان والسلام، منشطةً للنفس والوجدان، وتلك

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، ص٢٨٣.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت١٤٢٣هـ. جـ١٣/٢.

المحسنات البديعية لم تكن مجرد زخارف لفظية جاءت لتنميق الألفاظ بمعزل عن المعاني والتراكيب، بل إنها من مقومات المعنى وداعمة له، وبدونها يسقط المعنى ويتهاوى، وهي إلى جانب ذلك مؤثرة في النظم وبدونها يختل.

وجاء هذا البحث في مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمراجع، وآخر للمحتويات، أما المقدمة فتحدثت فيها عن أهمية الموضوع وخطته، وفي التمهيد تحدثت عن الأثر النفسي للمحسن البديعي، وأما المبحث الأول فخصصته للحديث عن دور المحسن البديعي في عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب في الأدعية النبوية، وأما المبحث الثاني فتناولت من خلاله المحسن البديعي ومطابقته لمقتضى الحال في الأدعية النبوية، وأما المبحث الثالث فكان عن أثر المحسن البديعي في تتميم المعنى وتأكيده في الأدعية النبوية، ثم جاء المبحث الرابع تحت عنوان: المحسن البديعي وأثره في تحقيق التماسك اللفظي والترابط الدلالي في الأدعية النبوية، ثم الخاتمة واشتملت على أهم النتائج، ثم فهرس المراجع ويليه فهرس المحتويات، والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن لا يحرمنا أجره، وصل اللهم وسلم وزد وبارك على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

المحسن البديعي و أثره النفسي على المخاطب

عادة ما يتخذ الأديب المحسن البديعي وسيلةً يستعين بها على أداء المعنى في لفظٍ عذبٍ وعبارةٍ رشيقةٍ، تُحدث في قلب المخاطب وعقله نشاطًا، ويجد لها في الأذن طربًا، ومن ثم يسرع إلى تلقّيها وقبولها بل واستحسانها، وهذا النشاط الذهني وتلك الحيوية التي يحدثها المحسن البديعي، إنما هي ناتجة عن أمور عدة، فقد يكون سببها ما يحدثه المحسن البديعي من مخادعة ومفاجأة، كما في الجناس الذي يوهمك بتكرار الألفاظ وتواردها على المعنى الواحد، فإذا ما دققت النظر وجدت المعاني مختلفةً متباينةً، فإذا أدى الجناس تلك الوظيفة – أعني مفاجأة السامع– إلى جانب تأديته لوظيفة الجمال والتزيين كان مقبولًا مستحسنًا، وحتى تظهر تلك القيمة الجمالية الشكلية والمعنوية للجناس، وجدنا الإمام عبد القاهر يعقد مقارنةً بين الشعراء في الجناس، وراح يثبت أن الجمال فيه لا يرجع إلى جمال الألفاظ من حيث هي، وإنما يرجع إلى ترتيب المعاني في الذهن ترتيبًا يؤثر في النفس، وضرب لذلك العديد من الأمثلة، كقول أبي الفتح البستي:

نَاظِرَاهُ فِيمَا جَنَى نَاظِرَاهُ ... أَوْ دَعَانِي أَمُتْ بِمَا أَوْدَعَانِي (١)

وعلق عليه بقوله: " قد أعاد– الشاعر– عليك اللفظ، كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك، وقد أحسن الزيادة ووفّاها، فبهذه

(١) ديوان أبي الفتح البستي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، تحقيق/ دريّة الخطيب ولطفي الصقال، ص٢٠٤.

السريرة صار التجنيس، وخصوصًا المستوفى منه المتفق في الصورة، من حلى الشعر، ومذكورا في أقسام البديع" (١)

فجمال الجناس عنده يرجع إلى المفاجأة، وأن الكلمة ترى كأنَّها لا تعطيك شيئًا جديدًا وهي في الحقيقة تعطي كثيرًا، وبذلك يؤثر الجناس التام بما فيه من خداعٍ وخفاءٍ لا يلبث أن ينكشف، ومن ثم عد من حلى الشعر، وذكر في أقسام البديع. وكل هذا يرجع إلى المعنى النفسي لا إلى اللفظ، ويضرب مثالًا للجناس الناقص قول أبي تمام:

يَمُدُّونَ مِن أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ ... تَصُولُ بأسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ (٢)

ويعقب عبد القاهر بأن تأثير الجناس ينبعث من المعنى النفسي أيضا، فإن السامع يتوهم قبل أن يرد عليه الحرف الأخير في كلمتي «عواصم، وقواضب» أن الكلمتين السابقتين لهما ستعودان ثانية، ومن هنا يأتي التأثير، يقول: " تعود إليك الكلمة مؤكدة حتى إذا تمكن في نفسك تمامها، ووعى سمعك آخرها، انصرفت عن ظنك الأول، وزلت عن الذي سبق من التخيل، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها، وحصول الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال" (٣).

ومن المحسنات التي تحدث تلك الدهشة وهذه المفاجأة التورية، حيث يطلق فيها لفظ له معنيان قريب وبعيد، فبينما يكون المخاطب منتبهًا للمعنى القريب ومتوجهًا إليه بكل حواسه، يجد تلك المراوغة من المتكلم بإرادته

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر، تحقيق/محمود شاكر، مطبعة المدني، ص٨.

(٢) ديوان أبي تمام. شرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي بيروت، ط: الثانية ١٤١٤هـ١٩٩٤م. جـ١/١١٤.

(٣) أسرار البلاغة، ص١٨.

للمعنى البعيد دون القريب، فسِرُّ جمالها راجع إلى قدرتها على التلطف والخفاء ووصول الأديب في ذلك إلى غايته، كما إنها تحدث حركة ذهنية بارعة من انتقال الذهن من المعنى القريب إلى البعيد.

وقد نبه علماؤنا على تلك الميزة للتورية، فذكروا أنه ليس أدق ولا ألطف ولا أنفع ولا أعون من التورية في فهم المتشابهات في كلام الله ورسوله [١].

ونجد كذلك تلك المفاجأة في حسن التعليل؛ الذي تكون العلة فيه باعتبارٍ لطيفٍ غير حقيقي، ومثل هذا اللون يدل على التمكن، وقوة العارضة والبيان، و سعة الخيال، ولنتأمل من شواهده قول المتنبي:

لَمْ تَحْكِ نَائِلَكَ السَّحَابُ وإِنَّما ... حُمَّتْ بِهِ فَصَبِيبُهَا الرُّحَضَاءُ [٢]

فالسحب لم تقصد محاكاة الممدوح في عطائه وكرمه، وإنما غاية الأمر أنها أصيبت بالحمى نتيجة حسدها للممدوح وعدم قدرتها على مجاراته في الكرم والعطاء، وما هذا المطر المتساقط منها إلا عَرَقٌ ناتج عن تلك الحمى التي أصابتها.

ومنه كذلك قوله:

مَا بِهِ قَتْلُ أَعَادِيه وَلَكِنْ ... يَتَّقِي إِخْلَافَ مَا تَرْجُو الذِئَابُ[٣]

فإنّ قتل الأعداء في العادة لدفع مضرَّتهم، لكن المتنبي يرفض التسليم بتلك العلة، ويدَّعي علة أخرى يظهر من خلالها مدى ما وصل إليه كرم الممدوح

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ ١٩٧٤م. جـ٣/٢٨٥.

(٢) ديوان المتنبي، دار بيروت ١٤٠٣هـ١٩٨٣م. ص١٢٩.

(٣) ديوان المتنبي، ص١٤٣.

وسخاؤه، حتى إن تلك المعارك التي يخوضها ليس المقصد منها التخلص من الأعداء، وإنما المقصد منها هو الاستجابة لدواعي الكرم في نفسه التي جعلته يتقي إخلاف ما تؤمله الذئاب من طعام.

وإذا تأمل السامع تلك العلة في هذا البيت والذي سبقه وجد لها أثرًا في نفسه، ولذة في عقله، ونشوة تمس قلبه، إذ كيف استطاع الشاعر أن يقلب الحقائق، ويعكس الأمور، ويلتمس لها التعليل، ويظهرها في صورة مقبولة.

وقد يكون سبب هذا النشاط الذهني والأثر النفسي، ما يجده من جمع بين الأضداد؛ فانتقال الذهن من الشيء إلى ضده يجعله أثبت في النفس وآكد؛ إذ بضدها تتميز الأشياء، كما في الطباق، ولنتأمل في هذا قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران/٢٦] فالغرض المراد هو إثبات القدرة في أوسع معانيها، وبيان السلطان في أشمل مظاهره وأكملها، وهذا لا يتم لا بالجمع بين الضدين والحكم بأنه يقدر على الأمرين: الإيتاء أو ما في معناه، والنزع أو ما في معناه، وكذلك الإعزاز والإذلال، فذكر الضد هنا لا محيص عنه؛ إذ قد يقدر شخص على الإيتاء لكنَّه لا يقدر على النزع، وقد يستطيع إنسان أن يعز، ولكنَّه يعجز عن الإذلال، لكن صاحب القدرة التامة، والسلطان الشامل تستحوذ قدرته على الأمرين وتتعلق بالضدين معا[1].

وقد يكون سببه ما يجده من تناسب ومؤاخاة بين الألفاظ، مما ينتج عنه وضوح المعنى، كما في مراعاة النظير، وقد نبه البيانيون على ما للمؤاخاة

([1]) ينظر: الصبغ البديعي د/أحمد إبراهيم موسى، دار: الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ. ١٩٦٩م. ص٤٧١.

بين الألفاظ من أهميةٍ في وضوح المعنى، فيقول الجاحظ: " فأجود الشعر ما كان متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنّه أفرغ واحدًا، وسُبك سبكًا واحدًا، فهو يجري على اللسان كما يجري الدِّهان" (١).

وأشار كذلك الإمام عبد القاهر إلى ما ينبغي أن يكون عليه الكلام من ترابط وما يكون بين عباراته من مناسبة وصلة فقال:" واعلم أنّك إذا رجعتَ إلى نفسِك، علمتَ علمًا لا يعترضُه الشكُّ، أنْ لا نظمَ في الكلمِ ولا ترتيبَ حتى يَعْلقَ بعضُها ببعضٍ، ويُبْنى بعضُها على بَعض، وتُجعلَ هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهلُهُ عاقلٌ ولا يخفى على أحدٍ من النّاس..." (٢)

وإذا كان الكلام على هذا الأسلوب لذ سماعه، وخف محتمله، وقرب فهمه، وعذب النطق به، وحلي في فم سامعه، فإذا كان متنافرًا متباينًا عسر حفظه، وثقل على اللسان النطق به، ومجَّته المسامع فلم يستقر فيها منه شيء (٣).

وكثيرًا ما يؤتى الشاعر أو الكاتب من هذه الجهة، حيث يجمع في شعره أو نثره بين أمورٍ متباعدةٍ لا يربطها رابطٌ، ولا يجمع بينها جامعٌ، فهذا نصيب الشاعر يعيب على الكميت قوله:

---

(١) البيان والتبيين، جـ١/٧٥.

(٢) دلائل الإعجاز تحقيق/محمود محمد شاكر– مكتبة الخانجي ط:الخامسة ٢٠٠٤م. ص٥٥.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق. تحقيق/محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجبل، بيروت. جـ١/ ٢٥٧.

أَمْ هَلْ ظَعَائِنُ بِالعُلَيَا نافعة. . . وَإن تَكَامَلَ فِيهَا الدَلُ والشَنَبُ [١]

فإنه قال له: أين الدل[٢] من الشنب[٣] إنما يكون الدل مع الغنج[٤] ونحوه، والشنب مع اللعس[٥] أو ما يجري مجراه من أوصاف الثغر والفم. فكان الدل والشنب في قول الكميت عيبًا لأنهما لفظتان لا يتناسبان بتقارب معنيهما ولا بتضادهما [٦].

وقد يكون سبب هذا النشاط ما يجده المخاطب من موسيقى وإيقاع كما في السجع، " إذ إنه يخامر العقول مخامرة الخمر، ويخدر الأعصاب إخدار الغناء، ويؤثر في النفوس تأثير السحر، ويلعب بالأفهام لعب الريح بالهشيم، لما يحدثه من النغمة المؤثرة، والموسيقى القوية التي تطرب الأذن، وتهش لها

---

(١) ديوان الكميت، جمع وشرح د/محمد نبيل طريفي، دار: صادر، بيروت، ط:٢٠٠٠م. ص٣٦، ونص البيت كما في الديوان: وقد رأينا بها حورا منعمة... بيضًا تكامل فيها الدل والشنب.

(٢) الدَّلُ دلالُ المرأة إذا تَدَلَلَتْ على زوْجها تُريه جَراءةً عليه في تَغَنُّجٍ وتَشَكُّلٍ كأنَّها تُخالِفُه وليس بها خِلاف.(العين للخليل بن أحمد تحقيق: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي. دار: الهلال. مادة " دل " جـ٨/٨).

(٣) الشَّنبُ: ماءٌ ورقة يجري على الثغر (معجم العين، مادة " ش ن ب " جـ٦/٢٦٨).

(٤) الغنج: التكسر والتدلل (جمهرة اللغة لابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت. ط: الأولى ١٩٨٧م. مادة" ج غ ن " جـ١/٤٨٧).

(٥) اللَّعَسُ: سواد يعلو الشّفة للمرأة البيضاء (معجم العين، جـ١/٣٣٤).

(٦) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت. ط: الأولى ١٤٠٢هـ. ١٩٨٢م. ص٢٠١.

النفس، فتقبل على السماع من غير أن يداخلها ملل أو يخالطها فتور فيتمكن المعنى في الأذهان، ويقر في الأفكار..." [1].

وقد يكون سبب النشاط والأريحية ما يجده السامع من دلالة لبعض الكلام على بعض، إذ يكون أول الكلام دالًا على آخره، وآخره متعلقًا بأوله، كما في الإرصاد حيث يأتي آخرُ الكلام موافقًا لما توقعه المخاطب، وكما في رد العجز على الصدر، فمن شواهد الإرصاد قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس/١٩] فإذا قرع سمع السامع قوله تعالى: (وَما كانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً واحِدةً فَاخْتَلَفُوا) ثم وقف على قوله: (وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ) فإنه يعرف لم سبق من تصدير الآية أن تتمتها وتكملتها (فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) لما تقدم ما يشعر بذلك ويدل عليه، ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت/٤٠] فإذا وقف السامع على قوله: (وَلكِنْ كانُوا) عرف لا محالة أن بعده ذكر ظلم النفوس؛ لما كان في الكلام الأول ما يدل عليه دلالة ظاهرة [2].

([1]) الصبغ البديعي، ص٤٩٧.

([2]) ينظر: الطراز للعلوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى١٤٢٣هـ. جـ٢/١٦٨.

وهذا ما أشار إليه الجاحظ فيما نقله عن عبدالله بن المقفع من قوله: " وليكن في صدر كلامك دليلٌ على حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته" (١).

وفي الافتخار بذلك يقول ابن نباتة السعدي:

خُذْهَا إِذَا أُنْشِدَتْ فِي القَومِ مِن طَرَبٍ ... صُــدُورُهَا عُلِمَتْ مِنهَا قَوَافِيهَـا

يَنْسَى لَهَا الرَّاكِبُ العَجْلَانُ حَاجَتَـهُ ... وَيُصْبِحُ الحَاسِدُ الغَضْبَانُ يُطْرِيهَا (٢)

وعلى الجانب الآخر قد يكون النشاط ناتجًا عن كسر التوقع، إذ يتوقع المخاطب أمرًا فيفاجأ بغيره، كما في تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه، حيث يتوقع المخاطب ذمًا أو مدحًا، فيفاجئه المتكلم بغير ما توقع، فيتمكن المعنى بذلك في نفسه أيّما تَمكُّن، ومن شواهده المشهورة قول النابغة الذبياني:

وَلَا عَيْبَ فِيْهِم غَيرَ أنَّ سُيُوفَهُم ... بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ (٣)

وقول النابغة الجعدي:

فتىً كَمُلَتْ أَخْلَاقُهُ غَيْرَ أنَّهُ ... جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِن المَالِ بَاقِيَا (٤)

---

(١) البيان والتبيين، جـ١/١١٤.

(٢) ديوان ابن نباتة السعدي، دراسة وتحقيق/عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٣٩٧هـ١٩٧٧م. جـ١/٤٨١.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة الذخائر، دار المعارف، ط: الثانية، ص٤٤.

(٤) ديوان النابغة الجعدي، تحقيق د/ واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط: الأولى١٩٩٨م. ص١٨٨.

وبتأمل هذين الشاهدين نجد أن صفة الشجاعة في البيت الأول، وصفة الكمال والسخاء في البيت الثاني، قد ثبتتا بطريقة أشد تأكيدًا وأكثر مبالغةً، حيث توهم السامع في بادئ الأمر أن الشاعر سيأتي بصفة ذم وقدح، فإذا به يجد صفة مدح تأكد المدح السابق، ومثل هذا الأسلوب لا شك أقوى في الدلالة على المعنى وآكد في إثباته، وما يقال في هذا يقال في عكسه من تأكيد الذم بما يشبه المدح.

وقد يكون النشاط الذهني والمتعة العقلية ناتجة عن إعمال المخاطب لفكره حتى يستقيم له المعنى، كما في اللف والنشر، الذي يذكر فيه متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم يذكر ما لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه.

وخلاصة القول: إن المحسن البديعي يؤثر في النفس أيما تأثير، ويعمل فيها أيما عمل، ولعلنا بذلك نستطيع أن ندرك أسباب هذا الجمال الذي نلمسه في الكلام المشتمل على تلك المحسنات، فهذا الجمال ليس قاصرًا على الألفاظ بحيث لا يتعداها، وإنما هو يتغلغل بعمق في ثنايا النفس، ويسري بخفةٍ وسلاسةٍ إلى العقل والقلب، ولا يدرك أثره إلا من رق طبعه ورقى ذوقه، ولطف حسه، ومثل هذا لا شك له أثر إيجابي على عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب، وسأخصص المبحث التالي للحديث عن هذا الجانب لما له من أهمية محاولًا تطبيق تلك القواعد النظرية على الأدعية النبوية، ومظهرًا ما للمحسن البديعي من أثر في عملية التواصل بين النص ومتلقيه.

المبحث الأول

دور المحسن البديعي في عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب في الأدعية النبوية

إنَّ المتكلم حينما يصنع خطابًا ما، فإنَّه لا شك يضع في اعتباره أنَّ هناك مخاطبًا تجب مراعاته، وإلا وقعت بينه وبين مخاطبه قطيعةٌ، وعاد خطابه بلا ثمرةٍ أو فائدةٍ، وحتى يتم التواصل بينه وبين مخاطبه، فلابد أن يدعم خطابه ببعض العناصر التي من شأنها أن تلفت المخاطب وتؤثر فيه، كاستعمال التصوير بما فيه من روعةٍ وجمالٍ، والحذف بما فيه من تنبيهٍ للعقل للوقوف على المحذوف، والتقديم والتأخير بما لكل منهما من أسرار، وهكذا، ومن بين تلك الوسائل التي تساعد في عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب استعمال المحسن البديعي؛ ذلك أنه عامل من عوامل جذب الانتباه، كما أن فيه تجديدًا للنشاط كما بينت في التمهيد، ويؤثِّر في المشاعر، وهو لون من ألوان التفنن في الخطاب والتصرف في تشكيله، وفيما يلي أحاول الوقوف مع تلك الوظائف التي يؤديها المحسن البديعي من خلال الأدعية النبوية الشريفة.

أولا: المحسن البديعي محركٌ للقلوب ومثيرٌ للوجدان

فالمحسن البديعي بما فيه من خلابةٍ ورهافةٍ، يعمل في قلب المخاطب، ويثير وجدانه، ويجعله في حالة من التيقظ والإنصات؛ لما يجده من لذة تلامس شغاف قلبه، فينتج عن ذلك الخشوع والاستجابة لما يدعى إليه، ومن هنا ندرك أن استعمال المحسن البديعي أحد مقومات الخطاب الدعوي، شريطة ألا يكون متكلفًا كما سبق وأشرت إلى ذلك، فالدعوة إلى الله والتبليغ

عن الله يحتاجان إلى عبارة تمس قلب المدعو وتؤثر فيه، ولعل هذا يفسر لنا ظاهرة الإكثار من المحسنات البديعية في الأدعية النبوية، لاسيما تلك الأدعية التي فيها تثبيت للعقيدة وثناء على الله تعالى، إذ من أولويات الرسالة والدعوة تعريف الناس بخالقهم، وتصحيح عقائدهم، وتصفيتها من كل ما يشوبها، وإذا كان لنا أن نشبه الإسلام بالبناء فإن العقيدة هي أساسه، وبدونها ينقضُّ البناءُ ويتداعى، ومن ثم وجدنا القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد اهتما بهذا الجانب اهتمامًا كبيرًا، وأكدا عليه أشد تأكيد، ومن الملاحظ في الأدعية النبوية الشريفة أنَّها حرصت على تثبيت العقيدة في القلوب، وكان من الوسائل التي اعتمدت عليها في هذا الشأن استعمال المحسنات البديعية؛ باعتبارها عاملًا من عوامل التواصل بين المتكلم والمخاطب؛ ولما لها من أثرٍ في تحريك القلوب والوجدان، ولنتأمل في ذلك قوله –صلى الله عليه وسلم–: (**اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، اللَّهُمَّ لَا قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلَا بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلَا هَادِيَ لِمَن أَضْلَلْتَ، وَلَا مُضِلَّ لِمَنْ هَدَيْتَ، وَلَا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، وَلَا مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلَا مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، اللهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ، اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ، وَالْفُسُوقَ، وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ...**)[1] فقد استهل هذا الدعاء بالثناء على الله تعالى وحمده، فأثبت له الحمد كله، بكل صوره، علمها العبد أو لم يعلمها، وهذا يعد من براعة الاستهلال أو براعة المطلع، ثم أثبت له العديد من الصفات: كالقبض والبسط، والعطاء والمنع، والهداية والإضلال،

([1]) رواه النسائي في السنن الكبرى، حديث رقم (١٠٣٧٠) تحقيق/ حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة – بيروت. ط: الأولى ١٤٢١هـ. ٢٠٠١م. جـ٩/٢٢٥.

واستعمل هنا ما يعرف بالعكس والتبديل في قوله: لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت. والعكس هنا مميز باشتماله على الطباق شأنه في ذلك شأن قوله تعالى ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران/٢٧] فالعكس في الآية الكريمة – كما قال ابن حجة الحموي– مميز بعلو طباقه [١].

وكما هو واضح أن الغرض من استعمال العكس في الحديث الشريف: التأكيد على أن الأمر كله بيده سبحانه، حتى لا تتعلق قلوب العباد بغيره، فالخلق ما هم إلا أسباب يجري الله على أيديهم ما يريد، والعكس والتبديل زاد من قوة المعنى وأكده تأكيدًا لا مجال معه للشك والارتياب، وهذا لا شك له دورٌ في طمأنة النفوس المضطربة التي أحاط بها الشقاء جرَّاء تعلقها بالأسباب بمعزلٍ عن مسببها، والعقول التي طالما أضناها التفكير في أمر الرزق، والقلوب التي سيطرت عليها المادة فشغلت بجمع الفاني وآثرته على الباقي، إن القارئ لهذا الحديث يجد راحةً ما بعدها راحة، إذ لا يملك بعد أن يوقن أن العطاء والمنع، والبسط والقبض، والهداية والإضلال، بيد الله وحده إلا أن يسلم الأمر إليه، ويقنع بما رزقه الله، ولا يعتمد في شئونه إلا عليه، وإذا أيقن العبد بذلك توجه بكليته إلى الله، وطلب منه ما يريد، ولن يخيب الله رجاءه، ولذا وجدنا النبي –صلى الله عليه وسلم– بعد أن أثبت لله – تعالى–

---

(١) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ٢٠٠٤م.جـ١/٣٥٤.

وحده تلك الصفات، ونفاها عما عداه، يتوجه إلى الله قائلا: " اللهُمَّ ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ وَرَحْمَتِكَ وَفَضْلِكَ وَرِزْقِكَ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ، اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ يَوْمَ الْعَيْلَةِ وَالْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ، اللهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ، اللهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ، وَالْفُسُوقَ، وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ" وهذا دعاء جامع لخيري الدنيا والآخرة، فلما علم النبي انشغال النفوس بالدنيا، وتعلقها بأهدابها، دعا بالبركة والرحمة والفضل والرزق، وهذه البركة وهذا الرزق قد يناله العبد ثم يتحول عنه ويزول فيبدله الله بالغنى فقرًا، وبالعطاء منعًا، ولذا أردف النبي بقوله: " اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ النَّعِيمَ الْمُقِيمَ الَّذِي لَا يَحُولُ وَلَا يَزُولُ" والسجع في قوله: " لا يحول ولا يزول " إلى جانب ما فيه من إيقاع وجرس، فإن فيه كذلك تأكيدًا على المطلوب، وعزمًا على المسألة، مصدقًا لقوله –صلى الله عليه وسلم–: **(إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ)**[1] فقد سأل الله نعيمًا مقيمًا ثابتًا، لا يتحول بتحول الأيام، ولا يدركه الزوال، ولما كان علمُ العبدِ قاصرًا فقد يطلب ما فيه هلاكه ويضجر مما فيه صلاحه، وجدنا النبي – صلى الله عليه وسلم– يقول معلما أمته: " اللهُمَّ إِنِّي عَائِذٌ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا وَشَرِّ مَا مَنَعْتَ" فقد يكون العطاء شرًا، وقد يكون المنع شرًا، فليس العطاءُ خيرًا على إطلاقه، وليس المنعُ شرًا على إطلاقه، وفي تقديم قوله: " شَرِّ مَا أَعْطَيْتَنَا" على قوله: " شَرِّ مَا مَنَعْتَ " تنبيهٌ للنفس وحثٌ لها على أن لا تركن لهذا العطاء وتظنَّ أنَّه دليلٌ على محبة الله ورضاه، فليس الأمر كما تصورت، فقد يكون العطاء استدراجًا،

([1]) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم (٦٣٣٨) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى،١٤٢٢هـ. جـ٨/٧٤.

وأما العطاء الذي لا شر فيه، فهو أن يرزق العبد حب الإيمان، وأن يكره الكفر والفسوق والعصيان، وأن يكون من الراشدين، ولذا وجدنا النبي يختم دعاءه بطلب تلك الأشياء؛ لأنَّها علامةٌ على محبة الله ورضاه، وهذا يُعدُّ من حسن المقطع أو حسن الختام.

والمحسن البديعي أسهم في عملية التواصل من خلال ما أضفاه على المعنى من تأكيدٍ ناتجٍ عن العكسِ والتبديلِ جعل القلوب تتعلق بالله وتستغني به عما سواه. وإلى جانب ذلك وجدنا الطباق بين أعطيتنا ومنعتنا، وبين الأمن والخوف، والمقابلة بين قوله: حبب إلينا الإيمان، وقوله: كره إلينا الكفر، والسجع في قوله: لا يحول ولا يزول، وبراعة المطلع وحسن الختام، وكل هذه المحسنات قد تضافرت فيما بينها لإبراز المعنى وإبانة الغرض، فبالعكس والتبديل يتأكد المعنى، وبالطباق ينشط الذهن، وبالسجع تستروح النفس.

ولنتأمل كذلك هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ: **(اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ)**[1] نلاحظ من خلال هذا الحديث أنَّ النبي – صلى الله عليه وسلم– كان يستلذ بذكر الله وتمجيده والثناء عليه، حتى إنَّه لينشغل بالذكر عن المسألة، وفي

(1) رواه مسلم في صحيحه حديث رقم (٢٧١٣) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي– بيروت. جـ٤/٢٠٨٤.

هذا تطبيق لقوله: **(مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ فَوْقَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ)**[1] ونجد تلك المقابلات في قوله: (أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ) وهي تؤكد على قدم ذاته وبقائه، فهو الموجد لكل الأشياء من العدم، فلا وجود سابق على وجوده، وهو الباقي بعد فناء الموجودات، فلا يدركه العدم والفناء، وهو الظاهر بالآيات، فلا شيء يطمس ظهوره ووجوده، ففي كل شيء له آية تدل عليه وتوصل إليه، وهو الباطن فلا يمكن إدراكه.

والنفس إذا أدركت تلك المعاني أقبلت على الله، واستجابت له، وانصاعت لأمره.

فالمحسن البديعي هنا لا شك مرقق للقلوب، مثير للوجدان، بما يتضمنه من تأكيد على قدم الذات والبقاء والظهور واللطف.

وقوله:(فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ) تقرير للمعنى السابق؛ ذلك أن قوله (أَنْتَ الْأَوَّلُ) مفيد للحصر فكأنَّه قيل: أنت مختص بالأولية فليس قبلك شيء، وعلى هذا أيضًا قوله: (وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ)[2].

وقد تضمن هذ الدعاء من أسماء الله تعالى ما تضمنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ﴾ [الحديد/٣] واختلفت عبارات العلماء في

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه حديث رقم (٢٩٢٧٣) تحقيق: كمال يوسف الحوت. مكتبة الرشد، الرياض. ط: الأولى ١٤٠٩هـ. جـ٦/٣٤.

(2) ينظر: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفورى، دار الكتب العلمية، بيروت. جـ٩/٢٤٣.

ذلك، وأرشق عباراتهم في ذلك قول من قال: الأولُ بلا ابتداءٍ، والآخرُ بلا انتهاءٍ، والظاهرُ بلا اقترابٍ، والباطنُ بلا احتجابٍ. وقيل: الأول بالإبداء، والآخر بالإفناء، والظاهر بالآيات، والباطن عن الإدراكات. وقيل: الأول: القديم، والآخر: الباقي، والظاهر: الغالب، والباطن: الخفي اللطيف، الرفيق بالخلق. وهذا القول يناسب الحديث، وهو بمعناه [١].

ووصف الله عز وَجل بأَنه فَوق كل شيء ليس على معنى المسافة والمساحة؛ ذلك أن كل ما كان فوق شيء على معنى المساحة والتمكن فيه والعلو عليه على هذا الوجه كان دونه شيء وهو على ما عليه من المكان، فلما أبان – صلى الله عليه وسلم– أنه ليس دونه شيء علمنا أن معنى أنه فوق كل شيء لا على معنى التمكين والمساحة والمسافة[٢].

ووجه الجمع في مطلع الحديث بين كونه تعالى رب السماوات والأرض، وفالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والقرآن، أنه –صلى الله عليه وسلم– لما ذكر أنه تعالى رب السماوات والأرض أي: مالكهما ومدبر أمرهما، عقبه بقوله فالق الحب والنوى؛ لينتظم معنى الخالقية والمالكية، ثم عقب ذلك بقوله منزل التوراة؛ ليؤذن بأنه لم يكن إخراج الأشياء

---

(١) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط: الأولى، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦م. ٤٢/٧.

(٢) ينظر: مشكل الحديث وبيانه لأبي بكر محمد بن فورك الأنصاري الأصبهاني، تحقيق: موسى محمد علي، عالم الكتب – بيروت، ط: الثانية، ١٩٨٥م. جـ١/٣٩٤.

من حيز العدم إلى فضاء الوجود إلا ليعلم ويعبد، ولا يحصل ذلك إلا بكتاب ينزله ورسول يبعثه [1].

ثانيا: المحسن البديعي مجددٌ للنشاط وجاذبٌ للانتباه

أشرت إلى هذه الميزة سابقًا، وأقول هنا: إنَّ أكثرَ ما يصرف السامع عن الخطاب وعن المتكلم ما يجده من رتابة في خطابه، فيصاب بالسآمة ويدركه الملل، ومن ثم كان لزامًا على المتكلم أن يجدد من نشاط المخاطب ليقبل عليه وينصت إليه، ويكون ذلك باستعمال الوسائل المجددة للنشاط واللافتة للانتباه، ومن بينها المحسنات البديعية، ومن ثم يمكن لنا أن ندرك السرَّ وراء هذا النشاط الذي يجده الناظر في الأدعية الشريفة والأريحية التي يستشعرها بقراءة تلك الأدعية، ففضلا عن أنَّها مؤيدةٌ بالوحي ومحاطةٌ بالعصمة، فإنَّ أسلوبها غنيٌ بالوسائل التعبيرية التي من شأنها تجديد النشاط ورفع الكلفة وإزاحة السآمة، ولذا وجدنا النبي – صلى الله عليه وسلم– يستعمل تلك المحسنات في أدعيته لإدراك تلك الغاية، ولنتأمل على سبيل المثال هذا السجع الموجود في قوله صلى الله عليه وسلم: **(اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ)**[2] نجد تلك الموسيقى الناتجة عن توافق الفواصل والتي تنساب انسياب الماء الزلال الرقراق، نجدها مجددةً لنشاط السامع ومعينةً له على التدبر، وليس هذا فحسب بل إن السجع جعل العبارة

([1]) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، جـ٤/١٦٧٠.

([2]) رواه الترمذي في سننه حديث رقم (٤٦٤) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، مطبعة: مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط: الثانية ١٣٩٥هـ .١٩٧٥م. جـ٢/٣٢٨.

طيعةً للسان سهلةَ الحفظ، وتلك هي أهم وظيفةٍ للسجع لاسيما وأنَّ الخطاب النبوي ليس موجهًا للحاضرين دون غيرهم، وإنَّما هو موجه لمن حضر ولمن غاب إلى أن تقوم الساعة، وقد أدرك القدماء تلك الوظيفة المهمة للسجع، فوجدنا الجاحظ يقول: " قيل لعبد الصّمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: لم تؤثر السجع على المنثور، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن؟ قال: إنَّ كلامي لو كنت لا آمل فيه إلا سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك، ولكنِّي أريد الغائب والحاضر، والراهن والغابر، فالحفظ إليه أسرع، والآذان لسماعه أنشط، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلّت. وما تكلمت به العرب من جيّد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره" [١].

ووجدنا ابن جني يتحدث عن أثر السجع في عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب فيقول: " ألا ترى أنَّ المثل إذا كان مسجوعًا لذَّ لسامعه فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديرًا باستعماله، ولو لم يكن مسجوعًا لم تأنس النفس به، ولا أنقت لمستمعه، وإذا كان كذلك لم تحفظه، وإذا لم تحفظه لم تطالب أنفسها باستعمال ما وضع له وجيء به من أجله" [٢].

ولنتأمل كذلك قوله–صلى الله عليه وسلم–: **(اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَرْفَعَ ذِكْرِي، وَتَضَعَ وِزْرِي، وَتُصْلِحَ أَمْرِي، وَتُطَهِّرَ قَلْبِي، وَتَحَفَّظَ فَرْجِي، وَتَنُّورَ لِي قَلْبِي، وَتَغْفِرَ ذَنْبِي)** [٣] نجد السجع يسري في الحديث من أوله

---

(١) البيان والتبيين، جـ٢٣٩/١.

(٢) الخصائص لابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب. ط:الرابعة، جـ٢١٧/١.

(٣) المعجم الأوسط للطبراني حديث رقم (٦٢١٨) تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة. جـ٢١٣/٦.

لآخره فهناك توافق في الفواصل بين الكلمات: ذكري- وزري -أمري- قلبي- ذنبي. والسجع هنا بالرغم من تتابعه إلا أنه مستحسن إذ لا تكلف فيه، لذا لا يكاد المخاطب يشعر به وإن كان يجد أثره، ومن ثم لم تجد النفس أدنى غضاضة في استساغته وقبوله، بل إن هذا التوافق مساعد قوي على استحضار الخشوع؛ لما يشيعه السجع من جو مفعم بالسكينة والطمأنينة، وهذا بدوره يجدد النشاط ويأخذ بالألباب.

وما قيل في السجع يقال في الجناس، فالجناس – كما ذكر السيوطي- يحدث في النفس ميلًا إلى الإصغاء ذلك أن تشابه الألفاظ يحدث ميلًا وإصغاءً؛ لأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به آخر كان للنفس تشوق إليه [1].

ولنتأمل في ذلك دعاء النبي الذي رواه أَنَس بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ إِذَا سَافَرَ فَصَعِدَ أَكَمَةً قَالَ: **(اللَّهُمَّ لَكَ الشَّرَفُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ، وَلَك الْحَمْدُ عَلَى كُلِّ حَالٍ)**[2] فبين كلمتي: الشرف وشرف جناس تام، فهما متَّحِدتان في الحروف وعددها وترتيبها وهيئتهما، ومتفقتان في الاسمية، إلا أنهما مختلفتان في المعنى، فالشرف الأول علو الرتبة، والشرف الثاني ما ارتفع من الأرض كالهضاب والآكام، وهذا التوافق الواقع بين الألفاظ يوهم في بادئ الأمر وقوع التوافق في المعنى، فإذا ما أدرك المخاطب اختلاف المعنى تجدد عنده النشاط، وكان منه تبعا لذلك الإصغاء.

([1]) ينظر: الإتقان ٣/٣١٠.

([2]) رواه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم (١٢٢٨١) تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م. جـ٢٩٨/١٩.

ولننظر كذلك في قوله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– في الحديث الذي رواه عَبْد اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: **(اللَّهُمَّ حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي)**[1] فبين كلمتي خَلْقِي و خُلُقِي جناس محرف، وهو كذلك منبه للعقل ومحفز للنفس حتى تدرك المعنى ولا يلتبس عليها المراد.

كذا مما يعين على تجديد نشاط السامع، ويسهم في إنجاح عملية التواصل بينه وبين المتكلم، ويحقق الغاية من الخطاب، فن الطباق والمقابلة بما فيهما من جمع بين الأضداد، مما ينتج عنه تجدد النشاط وجذب الانتباه بانتقال النفس من اللفظ إلى ضده، ومن المعنى إلى نقيضه، مما يجعل اللفظ أكثر عذوبة، والمعني أشد ظهورا، ويجعل النفس أشد انتباهًا وأكثر تيقظًا، فالمخاطب حين يدرك التقابل بين المعنى الأول في الطباق، أو أكثر من معنى في المقابلة يعد نفسه لتلقي تقابل آخر، فإذا ما تحقق له ذلك أحس بشيء من المتعة، هي المتعة التي نأنسها عندما تتحقق توقعاتنا، وهذا يعد من قِيم الطباق وجمالياته؛ فالطباق لدية القدرة على أن " يلم شَتات المتنافرات في موضع واحدٍ فيحدث في الذهن ضربًا من الانتقال السريع بين الضد وضده، والشيء ومقابله. وحين يتحقق للإدراك هذه الإحاطة بالمتباعدات في الواقع، على هذا النحو السريع، وعلى هذه الصورة التي يتجاور فيها الماء والنار، والأبيض والأسود، يأنس شيئًا من البهجة والرضا. ويبدو أن المتباعدات في المعنى أقدر من غيرها على تنشيط الفعالية

([1]) رواه أبو يعلى في مسنده حديث رقم (٥٠٧٥) تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط: الأولى١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م. جـ٩/٩.

الإدراكية. كما يتأتى شيء من هذه الجمالية من التعجب والإدهاش اللذين يحدثان للذهن عند إدراك الأفعال المتضادة المنسوبة إلى فاعل واحد" [1].

وهذا يؤكّد تلك القاعدة الثابتة بلاغيًا، وهي أنَّ الطباق من الأمور الفطرية التي لها علاقةٌ وثيقةٌ ببلاغة الكلام، إذ الضد أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده، فالطباق ينقل غرض المتحدث ويبرزه في صورةٍ قويةٍ مؤثرةٍ[2].

ولنتأمل من شواهد الطباق في الأدعية النبوية، قوله صلى الله عليه وسلم: " **اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لا إله إلا أنت**" [3] نجد أنَّ الطباق هنا إلى جانب ما أفاده من شمولٍ واستقصاءٍ، فإنَّه كذلك ساعد على جذب انتباه المخاطب بما حققه له من متعةٍ ونشاطٍ، فالمخاطب عندما يسمع كلمة " قدمت " يهيئ نفسه لسماع نقيضها " أخرت " وعندما يسمع قوله: (أسررت) يكاد لسانه أن ينطق بنقيضها (أعلنت) قبل وقوعها، وكذا عندما يسمع كلمة (المقدم) ينصرف ذهنه مباشرة إلى نقيضها (المؤخر) وهكذا يحدث التجاوب والتواصل بين النص ومتلقيه.

ولنتأمل من شواهد المقابلة قوله صلى الله عليه وسلم: **(اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ، واصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ، لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ**

([1]) المفصل في علوم البلاغة العربية د/ عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م. ص٥٦١.

([2]) الصبغ البديعي ص٤٧١.

([3]) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم (١١٢٠) جـ٢/٤٨.

إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ)[1] نجد المقابلة بين قوله: اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلا أَنْتَ، وقوله: اصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلا أَنْتَ، والتناسب في العبارة الناتج عن استعمال المقابلة لا شك يجعل المعنى أكثر استقرارًا وثباتًا، إذ توخي المناسبة بين الجمل شرط أساسي من شروط المقابلة، فالمقابلة البليغة ما جاءت صحيحة مطبوعة، وصِحة المقابلة تتحقق من ترتيب الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى المتكلم في صدر كلامه بأشياء قابلها في عجزه بما يلائمها من أضدادها من المخالف والموافق على الترتيب، وهذا يعني أنه متى أخلّ بالترتيب كان الكلام فاسد المقابلة.

وهذا ما أكّده حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) بقوله: «وإنما تكون المقابلة في الكلام بالتوفيق بين المعاني التي يطابق بعضها بعضًا، والجمع بين المعنيين اللذين تكون بينهما نسبة تقتضي لأحدهما أن يذكر مع الآخر، من جهة ما بينهما من تباين أو تقارب، على صفة من الوضع تلائم بها عبارةُ أحد المعنيين عبارةَ الآخر كما لاءم كلا المعنيين في ذلك صاحبه" [2].

ثالثا: التناسب الصوتي للمحسن البديعي واستمالته للمخاطب

" إنَّ البلاغة العربية قامت في جزءٍ مهمٍ من مباحثها على مبدأ التناسب الذي أشار البلاغيون إلى أثره الجمالي بطريقةٍ واضحةٍ أحيانًا وطريقةٍ خفيةٍ أحيانًا أخرى ، ومن أبرز ما تجلى فيه الاهتمام بالتناسب لدى البلاغيين، ما عالجوه ضمن أنواع البديع التي لا يخرج أكثرها عن أن يكون تناسبًا صوتيًا

([1]) رواه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم (٨٠٣) جـ١٨٣/٢.

([2]) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ص٥٢.

كالموازنة والتصريع وكل ما يلحق بالوزن والقافية من حيث المبدأ، أو تناسبًا دلاليًا صوتيًا كالجناس والطباق وغيرهما، فهذه الأنواع تقوم في عمومها على تناسب بين طرفين أو أكثر في النص، وهي تحقق هذا التناسب بوصفه مقياسًا جماليًا له أهميته في التأثير الإيجابي على المتلقي وكسب تفاعله وإعجابه، ولهذا ارتبطت تلك المحسنات البديعية عند أكثر البلاغيين بما أسموه المناسبة والملاءمة والترابط والتلاحم وغير ذلك"[١].

فالمحسنات البديعية تتسم بالجمال والتناغم والتوازي ومن طباع النفس السليمة الميل إلى كل ما هو جميلٌ متناسقٌ. وهذا الجمال والتناسق يظهر جليًا في الأساليب المتضمنة لتلك المحسنات، نعم إن الجمال المزيف والحسن المجتلب سرعان ما ينكشف زيفه ويظهر للعيان قبحه، لكن من المستقبح أيضا أن نرفض كل جمالٍ وحسنٍ اعتمادًا على هذه الدعوى، فالزراية على الجمال اللفظي بهذا التعميم وهذا الإطلاق بدعة ابتدعها من اعتلَّت أذواقهم واختلَّت المقاييس لديهم، وليس لأكثر البدع مسوغ من الفطر السليمة والفكر الصالحة إنَّما هي نزوات في بعض الرؤوس، أو نزغات في بعض النفوس، المحرك لها انعدام الذوق أو العجز عن الكمال، فكيف ينكرون تجميل الأسلوب وتزيينه، وهم لا يبرحون يطلبون الجمال في شتى ضروبه ومختلف صوره؟ [٢]

---

(١) الأسلوبية والبلاغة العربية مقاربة جمالية، د/مسعود بودوخه، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن ٢٠١٧م. ص٢٣٣.

(٢) ينظر: دفاع عن البلاغة للزيات. عالم الكتب. ط: الثانية ١٩٦٧م. ص١١٦، ١١٧.

ويتجلى هذا التناغم الصوتي في السجع المرصع الذي تتفق فيه كلمات الجملة الأولى أو أكثرها مع كلمات الجملة الثانية في الوزن والتقفية[1]، من نحو قوله صلى الله عليه وسلم: **(ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا)** [2]، ففي الحديث الشريف دعاء للمنفق ودعاء على الممسك، وإذا نحن تأملنا في هاتين الجملتين اللتين يتكون منهما هذا الدعاء نجد بينهما اتفاقًا في الوزن والتقفية، ولا شك أن هذا الاتفاق جعل العبارة أكثر سلاسة وتناغما، وبالإضافة إلى ما في هذا الدعاء من سجع، فإن فيه كذلك مقابلةً أسهمت بدورها في إبراز المعنى وجعلته أكثر وضوحًا ورسوخًا في الذهن.

" فقد جاء السجع في هذا الحديث مقويًا للمعنى، مؤثرًا في النفس بإيقاعه. ولكي تتأكد من ذلك نعمد إلى استبدال كلمة (خلفا) بما يرادفها فنقول (مزيدًا) فنلمس تدني أثر العبارة الجديدة، لأن مزيدًا افتقرت إلى الإيحاء الذي تطلقه كلمة (خلفًا) بما تخلفه في النفوس من الاطمئنان إلى هذا النمو الدائم، إذ ترسم في أذهاننا جملة من الصور الحية النابضة، نرى فيها كيف تواصل النبتة خلفتها، إذا قطعت منها، بل قد يزيد ذلك من قوة في نمائها... فأصلها باق عندك، وصورتها ماثلة أمامك وخلفتها قائمة في تجاربك... وكل ذلك يمنحك من الاطمئنان إلى سداد صنعك –حين تعطي منها– مما يدفعك إلى الاستجابة بلا تردد، ومثل ذلك خلفة الحيوانات ، وهو

([1]) ينظر: بغية الإيضاح د/عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط: السابعة عشرة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م. جـ٤/٦٥٤.

([2]) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم (١٤٤٢) جـ٢/١١٥.

أمر قائم في حياة العرب والناس جميعا، مما لا يحتاج معه إلى مزيد من القول اكتفاء بما تختزنه الكلمة من صور وإيحاءات" [1].

وأقول: إن هذا الإيقاع يجعل النفس أكثر إقبالًا لما تجده من لذة ناتجة عن التوافق بين الألفاظ لجمعها في سلك واحد ونغم متقارب، وقد استحسنوا الجمع بين اللفظ وما يشاكله، فكيف إذا تخطت المشاكلة في اللفظ إلى المشاكلة في الإيقاع، لا شك يكون الكلام أكثر استحسانا.

يقول الجاحظ: " إذا كان الشعر مستكرهًا، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلًا لبعض، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة" [2].

وما قاله الجاحظ لا يسري على اللفظ بمعزل عن الصوت، ولذا وجدناهم يفردون للحديث عن التوافق الصوتي بحوثًا خاصةً، فتناولوا التنافر المخل بالفصاحة سواء كان هذا التنافر واقعا في الكلمة أو الكلام.

ويأتي بعد السجع المرصع، السجع المتوازي: وهو ما اتفقت فيه فاصلة كل قرينة مع صاحبتها في الوزن والتقفية، أما ما قبل الفاصلتين فقد تكون كلماتها متفقة في أحدها في الوزن وقد لا يكون هناك توافق، ومن شواهده قوله –صلى الله عليه وسلم–: (**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْأَرْبَعِ: مِنْ عِلْمٍ لَا**

([1]) البلاغة العربية في فنونها البديع والبيان، د/ محمد علي سلطاني، دار العصماء، دمشق١٤٢٦هـ ص٦٠، ٦١.

([2]) البيان والتبيين جـ١/٧٥.

يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ)[1] فإن الفواصل: ينفع ويخشع وتشبع ويسمع، متفقة فيما بينها في الوزن والتقفية، ونجد توافقًا في الوزن دون التقفية بين: من علم و من قلب و من نفس.

ثم يأتي السجع المطرف الذي تتفق فاصلتاه دون غيرهما في التقفية دون الوزن ومن شواهده قوله صلى الله عليه وسلم: **(اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ)**[2] فبين نعمتك وعافيتك ونقمتك وسخطك سجع مطرف حيث اتفقت الفواصل في التقفية دون الوزن، ومع اختلاف تلك الكلمات في الوزن، إلا إنها لم تخل من جمال الإيقاع الناتج عن اتفاق القوافي، وهذا الإيقاع والتناغم يطرب السامع ويلفت انتباهه.

ويظهر التناغم الصوتي كذلك في الجناس، فالجناس من الوسائل التي تبعث على الإيقاع والتنغيم الصوتي، لتشابه الأصوات في الألفاظ المتجانسة، عند تكرار حروف معينة بترتيب معين، وهو يشبه إلى حد كبير اللازمة الموسيقية عند تكرارها في لحن معين [3].

([1]) رواه مسلم في صحيحه بَابُ: التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يُعْمَلْ، حديث رقم (٢٧٢٢) جـ٤/٢٠٨٨.

([2]) رواه مسلم في صحيحه باب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، حديث رقم (٢٧٣٩) جـ٤/٢٠٩٧.

([3]) ينظر: وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة فنية د/ روناك توفيق علي النورسي، دار الكتب العلمية، بيروت. ص٢٠١١، ٢٠١٢.

ولتلك الموسيقى الناتجة عن تشابه الألفاظ أثرٌ كبير في استمالة المخاطب وقد فطن ابن الأثير الحلبي لهذا الدور فقال: " ولم يذكر علماء البيان فائدةَ التجنيس... غير أنَّهم عبروا عن ذلك بشيء يشبه أن يكون فائدةً للتجنيس، فإنهم قالوا إنَّ تشابه ألفاظ التجنيس تحدث بالسمع ميلًا إليه، فإن النفس تتشوف إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنيين، وتتوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذلك اللفظ، فصار للتجنيس وقع في النفوس وفائدة" [١].

ولنتأمل في ذلك قوله –صلى الله عليه–: **(اللَّهُمَّ اسْقِنَا غَيْثًا مُغِيثًا، مَرِيئًا مَرِيعًا، نَافِعًا غَيْرَ ضَارٍّ، عَاجِلًا غَيْرَ آجِلٍ)** [٢] نجد الجناس الناقص بين غيثا ومغيثا، والجناس المضارع بين مريئًا ومريعا، وبين عاجلا وآجل فالهمزة والعين مخرجهما واحد، وهذا الجناس ساعد على إخراج المعنى في صورة مبهجه تأنس لها النفس وتلذ بها الأذن، فهو على حد قول العلوي: " من ألطف مجارى الكلام ومن محاسن مداخله، وهو من الكلام كالغرة في وجه الفرس" [٣]

ويظهر هذا التناسب والتناغم الصوتي في رد العجز على الصدر من نحو قوله صلى الله عليه وسلم: **(اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ**

---

(١) جوهر الكنز لابن الأثير الحلبي، تحقيق/ محمد زغلول سلام. منشأة المعارف بالأسكندرية. ص٩١.

(٢) رواه أبو داوود في سننه حديث رقم(١١٦٩) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، جـ٣٠٣/١.

(٣) الطراز ليحي بن حمزة العلوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى،١٤٢٣هـ. جـ١٨٥/٢.

مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا) [1] فنجد هذا التناسب بين قوله: زكها وزكاها وقوله: وليها ومولاها.

ويظهر التناسب الصوتي كذلك في العكس والتبديل من نحو قوله صلى الله عليه وسلم: **(اللَّهُمَّ انْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتنِي، وَعَلِّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي)**[2] فقد اجتمع في هذا النص الشريف محسنان أحدهما: العكس والتبديل، وثانيهما: السجع حيث اتفقت فاصلتا الجملتين.

وهذا الجرس الموسيقي في المحسن البديعي لا شك له أثرٌ في استمالة المخاطب، و ينبغي ألا يُنظر إليه على أنه شيءٌ ثانوي بل هو جزءٌ من المعنى ومن الكيان الفني عامة فهو يقوي إحساسنا بالتناغم والتناسق، ويغمرنا نتيجةً لهذا الجرس إحساسٌ بالنشوة لما قدمته لنا هذه اللوحة الفنية الجميلة، وتلك هي الغاية القصوى للعمل الأدبي [3].

([1]) رواه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم(٢٥٧٥٧) جـ٤٢/٤٩٢.

([2]) رواه الترمذي في سننه حديث رقم(٣٥٩٩) جـ٥/٥٧٨.

([3]) ينظر: البديع والتوازي د/ عبد الواحد حسن الشيخ. مكتبة الإشعاع الفنية بالمنتزه. ط: ألأولى١٤١٩هـ. ١٩٩٩م.ص٣.

المبحث الثاني

المحسن البديعي والمطابقة لمقتضى الحال في الأدعية النبوية

إنَّ مما يجب التنبه إليه أنَّ المحسنات البديعية ينبغي أن لا تستعمل في الكلام استعمالًا عشوائيًا دون أن يستدعيها الحال ويتطلبها المقام، وإلا كان ضررها أكثر من نفعها، وكانت عبئًا على الألفاظ والمعاني، فتزيد الألفاظ قبحًا والمعاني غموضًا، وقد حذر الإمام عبد القاهر من سلوك هذا المسلك، فقال: " وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلامًا حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع، إلى أن ينسى أنّه يتكلم ليفهم، ويقول ليبين، ويخيّل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء، وربّما طمس بكثرة ما يتكلّفه على المعنى وأفسده، كمن ثقّل العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها"[1].

فلكل محسن من تلك المحسنات مقام هو أحق به من غيره وأولى به من صاحبه، وقد ذكر السيوطي أن بعض الأدباء قد زل، فقال في قوله تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات/١٢٥] لَوْ قَالَ: "وَتَدَعُونَ" لَكَانَ فِيهِ مراعاة للتجنيس، وأجاب عن ذلك ابن الزملكاني بأن التجنيس تحسين، وإنما يستعمل في مقام الوعد والإحسان لا في مقام التهويل [2].

([1]) أسرار البلاغة ص٩.

([2]) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:١٣٩٤هـ. ١٩٧٤م. جـ٣/٣١٣.

وتلك الإشارة التي أشار إليها ابن الزملكاني، ونقلها عنه السيوطي، تنبهنا إلى أن لكل محسن مقامًا يستعمل فيه، فالجناس مثلًا يستعمل في مقام الوعد والإحسان، والتورية تستعمل في مقام التنبيه للمخاطب أو اختبار مقدار تنبهه أو التعمية، ونحو ذلك، والسجع يستعمل في مقام التخفيف عن المخاطب وهكذا.

فالمحسنات البديعية لا تنفصل بحال من الأحوال عن تأدية المعنى، ورعاية مقتضى الحال، ثم لا تنفصل عن الغاية التعليمية في سعيها للتمكين للمعنى في نفس المتلقي [١].

و مما يُحمد للإمام عبد القاهر تناوله لمباحث علمي البديع والبيان بلا فصل بينهما، فهي لديه جميعًا مجرد أساليب لغوية بلاغية ينبغي على البلاغي أن يقف أمامها بالتحليل الأدبي البلاغي، الذي يوازن فيها بين الصياغة التعبيرية الأسلوبية التي تشكلت بها تلك الفنون والأساليب، وبين المعاني الفنية التي تدل عليها، بلا تفريق بين تلك المباحث، وبغير تشتيت للنظر بوضع الحدود المصطنعة بينها بلا داع ولا ضرورة تمليها النظرة البلاغية الأدبية، وهو بذلك سابق لتلك النظريات الأسلوبية والبلاغية الحديثة في علوم البلاغة والأسلوب، والتي دعت إلى دراسة المحسن البديعي في ضوء النص وتحت مظلته [٢].

---

(١) مقدمة في نظرية البلاغة النبوية السياق وتوجيه دلالة النص، د/عيد بلبع، سلسلة سياقات، دار بلنسية للنشر والتوزيع، ط: الأولى١٤٢٩هـ٢٠٠٨م. ص٢٥٥.

(٢) ينظر: أسرار البلاغة تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى،١٤٢٢هـ ٢٠٠١م ص١١

وفيما يلي أقف مع المحسنات البديعية محاولًا الكشف عن مدى مطابقتها لمقتضى الحال، ووفائها بالمعنى المراد، وذلك من خلال الأدعية النبوية الشريفة.

ولنتأمل ذلك الحديث الذي رواه شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قال: " **سَيِّدُ الِاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**"[1].

فإننا نلاحظ المقابلة بين قوله –صلى الله عليه وسلم–: " أنت ربي "، وقوله: " وأنا عبدك " وكذا بين قوله: " أبوء لك بنعمتك علي " وقوله: " وأبوء بذنبي " ونلاحظ الجناس بين قوله: " عبدك وعهدك ووعدك "، والسجع بين قوله: " وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت " وقوله: " أعوذ بك من شر ما صنعت".

والمقام هنا –كما هو واضح– مقام ضراعة ورجاء، فقد ذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– ربه بأكمل الأوصاف وذكر نفسه بأنقص الحالات، وهو غاية التضرع ونهاية الاستكانة [2].

وقد سُمي هذا الدعاء بسيد الاستغفار لما فيه من بديع المعاني وحسن الألفاظ، ففيه الإقرار لله وحده بالألوهية ولنفسه بالعبودية، والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به، والاستعاذة

([1]) رواه البخاري في صحيحه باب: فضل الاستغفار، حديث رقم (٦٣٠٦) جـ٦٧/٨.

([2]) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت. جـ٢٧٨/٢٢.

من شر ما جنى به العبد على نفسه، وإضافة النعم إلى موجدها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ووفور رغبته في المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر على ذلك إلا هو، فهذا الاستغفار جامع لما يجب على العبد أن يقر به ويعترف ويدعو ويستغفر[1].

وبتدقيق النظر في تلك المحسنات التي اشتمل عليها الحديث نجد أن لها دورًا كبيرًا وأثرًا بالغًا في رسم الصورة وإظهار المعنى؛ ذلك أنَّها لا تكلف فيها، بل إنَّ المقام قد طلبها، والمعنى قد استدعاها، ومن ثم لو حاولنا الاستغناء عنها، أو استبدالها بغيرها لاضطرب تركيب الكلام، ولأتى المعنى هامدًا لا روح فيه، فمن المعلوم أن مقام الضراعة والرجاء يحتاج فيه المتضرع لإظهار ضعفه وعجزه في مقابلة قوة المرجو وقدرته، وهذا المعنى قد أدته المقابلة، فعندما يقول المتضرع: اللهم أنت ربي وأنا عبدك، فيقابل بين ربوبية المعبود وعبودية العبد، فإن تلك المقابلة –لا شك– تظهر للسامع من أول وهلةٍ مدى التفاوت بين المقامين: مقام الربوبية بما يقتضيه من عزة، ومنعة، وغلبة، وقدرة، وسلطان، وحكمة، وعفو، وصفح، ورحمة، إلى غير ذلك من صفات الجمال والكمال التي يستحقها هذا المقام، ومقام العبودية بما يقتضيه من ضعف، وافتقار، وذل، وانكسار، إلى غير ذلك مما يقتضيه هذا المقام، وقد اختصر النبي –صلى الله عليه وسلم– كل تلك المعاني باستعمال هذا المحسن البديعي " المقابلة"، وهذا العبارة " **اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ** " إلى جانب ما فيها من مقابلة، فإن فيها كذلك براعةَ استهلالٍ، حيث استهل الكلام بإثبات الربوبية والألوهية والخلق لله

([1]) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للمباركفوري، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية بنارس الهند، ط: الثالثة ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م. جـ٨/٣٣.

تعالى والاعتراف بالعبودية له، فتلك العبارة بمنزلة التهيئة لما يقصده من دعاء واستغفار، كما أن فيها إشارةً إلى أنَّ العبد إذا قصد أمرًا من أمور الدنيا أو الآخرة فإنما عليه أن يتوجه إلى الله فهو الرب والإله والخالق.

ونجد كذلك المقابلة بين قوله: " أبوء لك بنعمتك علي" وقوله: " وأبوء بذنبي " فتلك المقابلة فيها اعتراف بنعم الله وفضله وإقرار بذنب العبد وتقصيره، ووقوع الذنب في مقابلة النعمة، باعتبار أن الطاعة نعمة والذنب نقمة، إشارة إلى أن الطاعة تجلب نعمة والذنب يجلب نقمة ومن هنا تصح المقابلة، وقد يكون في الكلام احتباك، فحذف من الجملة الأولى ما دلت عليه الثانية، وحذف من الثانية ما دلت عليه الأولى، والتقدير: أبوء لك بنعمتك حيث وفقتني للطاعة، وأبوء بذنبي الذي هو سبب في نزول النقمة.

والعبارة –كما هو واضح– فيها إقرار بالنعمة وإقرار بالذنب، وفرق بين الإقرارين، فالأول يحتاج إلى شكر المنعم، ومن شكره الاعتراف بنعمه، والإقرار بالنعمة يورث القلب محبة المنعم، والثاني يحتاج إلى توبة، والإقرار بالذنب أول خطوات التوبة، كما أنه يورث القلب ذلًا وانكسارًا، وهذا بدوره يدفع العبد لطلب المغفرة، ولذا قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: **(فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ)**

يقول ابن القيم – رحمه الله–:" فجمع في قوله –صلي الله عليه وسلم– أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل. فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مفلسًا، وأقرب بابٍ دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالًا ولا مقامًا ولا سببًا يتعلق به

ولا وسيلة منه يمن بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف، والإفلاس المحض، دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل، وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر، إلا أن يعود الله –تعالى– عليه ويتداركه برحمته. ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى. والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: حب كامل، وذل تام"[1].

هذا، ولما كان المقام مقام ضراعة ورجاء، وهذا المقام لا بد أن يتجلى فيه الخشوع والسكينة والطمأنينة، فيحتاج إلى عبارات تنساب على لسان المتكلم وتأنس لها أذن السامع، بحيث لا يخرج قلبه عن تلك الحالة الإيمانية والروحية، وهنا يأتي دور السجع والجناس في قوله: " وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ " فالجناس بين قوله: عهدك ووعدك، والسجع الذي نتج عن توافق الفواصل في كلمتي "استطعت" و" صنعت " قد أحدثا شيئًا من الموسيقى في الكلام، وهي موسيقى غير مفتعلة ولا متكلفة وإنما هي طبيعية، ويدل على ذلك أننا لم نجد الجناس والسجع إلا في هذا المقطع من الحديث.

---

(1) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم. تحقيق: سيد إبراهيم. دار الحديث – القاهرة، ط: الثالثة،١٩٩٩م ص٨،٧.

يقول أبو هلال العسكري " واعلم أنَّ الذى يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السّجع؛ فإن جعلتها مسجوعةً كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد" (١).

ويفاد من كلامه أنَّ السجع –مالم يكن متكلفًا– يورث العبارة حسنًا ويكسبها جمالًا ، وقد أدى السجع تلك المهمة في الدعاء الشريف.

وإلى جانب تلك الموسيقى التي أحدثها الجناس والسجع، فإنَّ لهما أثرًا في قوة المعنى؛ ففي ذكر العهد والوعد معًا ما يدل على الحرص الشديد على الالتزام بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه، ثم قيد ذلك بالاستطاعة، " واشتراط الاستطاعة اعتراف بالعجز والقصور عن كنه الواجب في حقه تعالى، أي: لا أقدر أن أعبدك حق عبادتك، لكن أشهد بقدر طاقتي" (٢).

ثم نجد في آخر الحديث قوله –صلى الله عليه وسلم–: (فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ) فكان يكفيه أن يقوله: فاعفر لي ذنوبي، لكنَّه قرن بين طلب المعفرة والثناء على الله بقصر مغفرة الذنوب عليه –سبحانه–، وهذا يُعد من حسن الختام أو ما يعرف ببراعة المقطع، وهو كما عرفوه " أن يكون آخر الكلام الذي يقف عليه المترسّل أو الخطيب أو الشاعر مُسْتعذَبًا حسنًا، لتبقى لذّته في الأسماع" (٣).

---

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق/علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت١٤١٩هـ. جـ١/١٥٩.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لأبي الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، دار الفكر، بيروت. ط: الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م. جـ٤/١٦١٩.

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط: الأولى١٤٢٣هـ. جـ٧/١٣٥.

وتحضرني مقالة نقلها الجاحظ عن بعضهم حيث يقول: " الناس موكّلون بتفضيل جودة الابتداء، وبمدح صاحبه، وأنا موكل بتفضيل جودة القطع، وبمدح صاحبه. وحظ جودة القافية وإن كانت كلمةً واحدةً أرفعُ من حظ سائر البيت"[1].

ومن هنا وجدنا هذا الدعاء الشريف يتسم بحسن مطلعه وجودة مقطعة فبدأ بالثناء على الله تعالى، وختم كذلك بالثناء عليه وتوسط بين الثنائين الدعاء فكان حقيقًا بأن يسمى سيد الاستغفار.

ولنتأمل كذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ**»[2].

نجد براعة الاستهلال في قوله: (اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ) فقد أثنى على الله تعالى بما هو أهله، وجمع له في هذا الثناء بين علم الغيب والقدرة، و هذا من جوامع الكلم؛ لأنَّ في الجمع بينهما ما يدل على الكمال المطلق فهو –سبحانه– يعلم الغيب، وقادرٌ على جلب ما فيه مصلحة للعبد،

([1]) البيان والتبيين ١/١١١.

([2]) رواه النسائي في سننه حديث رقم (١٣٠٥) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط: الثانية١٤٠٦ هـ. ١٩٨٦م. جـ٣/٥٤.

ودفع ما فيه مضرة عنه، ولو أنَّه –صلى الله عليه وسلم– اقتصر على إحدى الصفتين دون الأخرى لكان في الكلام خلل وقصور، إذ قد يكون هناك من هو موصوف بالعلم لكن ليست لديه قدرة على دفع الضر وجلب النفع، وهذا هو العجز بعينه، وقد يكون هناك من هو موصوف بالقدرة، ولكن لا علم لديه، فيفسد من حيث يريد الإصلاح، وهذا هو السفه، أما علم الله فتصاحبه القدرة على فعل ما يريد، فهو منزه عن العجز، وقدرته مصحوبة بالعلم، بحيث تكون لأفعاله حكمة وإن خفيت، ففعله منزه عن العبث.

وقد اتخذ النبي – صلى الله عليه وسلم– هذا الابتداء توطئة لما يقصده من الدعاء، فكل مطلوبٍ يحتاج إلى علمٍ بأحواله وقدرةٍ على تنفيذه، وكان أول ما طلبه له صلة وثيقة بهاتين الصفتين –أعني علم الغيب والقدرة–، فقال: (أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي) فالإحياء والإماتة يحتاجان إلى قدرة، والخير والشر يحتاجان إلى علم إذ قد يكمن الخير فيما ظاهره الشر، وقد يكمن الشر فيما ظاهره الخير، وغير خاف ما بين أحيني وتوفني من مطابقة استدعاها المقام لأنه يطلب الخير في كل حال من أحواله.

ثم نجد الطباق كذلك في قوله: **(اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى)** فطابق بين الغيب والشهادة وبين الرضا والغضب، وبين الفقر والغنى، وهذا الطباق إلى جانب ما أضفاه على الكلام من تناغم ناتج عن الجمع بين الشيء وضده، فإنه كذلك شد من عضد المعنى وأكده، كما أفاد الشمول والاستقصاء، فهو –صلى الله عليه وسلم– يدعو بالخشية وقول الحق والقصد في كل أحواله، ولو أنه قال: وأسألك الخشية وقول الحق

والقصد في كل حال، لما كان الكلام بنفس الدرجة من التأكيد الذي أفاده الطباق بالنص على تلك الأحوال التي تكتنف العبد، فهو إما غائبٌ عن الناس أو حاضرٌ بينهم، وإما في رضا أو غضب، وإما في غنى أو فقر.

يقول الشوكاني في نيل الأوطار: " قوله: (خَشْيَتَك فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) أَي: في مغيب الناس وحضورهم؛ لِأَنَّ الخشية بين الناس فقط ليست من الخشية لله بل من خشية الناس، قوله: (وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا) إنَّما جمع بين الحالتين؛ لأنَّ الغضب ربَّمَا حال بين الإنسان وبين الصدع بالحق، وكذلك الرضا ربما قاد في بعض الحالات إلى المداهنة وكتم كلمة الحق. قوله: (وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى) القصد في كتب اللغة: بمعنى استقامة الطريق والاعتدال وبمعنى ضد الإفراط وهو المناسب هنا؛ لأنَّ بطر الغنى ربما جر إلى الإفراط، وعدم الصبر على الفقر ربما أوقع في التفريط، فالقصد فيهما هو الطريقة القويمة"[1].

ثم نجد الجناس الناقص بين كلمتي مضرة ومضلة في قوله:(**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**).

وقد ذكر الطيبي أن متعلق الظرف في قوله: (في غير ضراء مضرة) مشكل ولعله يتصل بالقرينة الأخيرة وهي الشوق إلى لقائك. سأل شوقًا إليه في الدنيا، بحيث يكون في ضراء غير مضرة، أي شوقًا لا يؤثر في سلوكي وإن ضرَّني مضرة ما، وعليه قول القائل:

([1]) نيل الأوطار للشوكاني، تحقيق/عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر، ط: الأولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م. جـ٢/٣٤٣.

إِذَا قُلْتُ أَهْدَى الْهَجْرُ لِي حُلَلَ الْبِلَى ... تَقُولِينَ لَوْلَا الْهَجْرُ لَمْ يَطِبِ الْحُبُّ

وَإِنْ قُلْتُ كَرْبِـــي دَائِمٌ قُلْتِ إِنَّمَا . . . يُعَدُّ مُحِبّـــا مَنْ يَدُومُ لَهُ كَرْبُ [1]

ويجوز اتصاله بقوله أحييني إلى آخره. ومعنى ضراء مضرة: الضر الذي لا يصبر عليه (ولا فتنة مضلة) أي موقعة في الحيرة مفضية إلى الهلاك [2].

وعليه فالجناس إلى جانب ما فيه من موسيقى جاذبة للانتباه فإنه بمنزلة القيد في الكلام؛ لأنَّ الضرر والفتنة لا محالة حاصلان للإنسان، إذ الدنيا دار فتنة وابتلاء كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء/٣٥] لكن الضرر والفتنة قد تلحقان بالإنسان ولا يجد لهما أثرًا في نفسه أو دينه؛ لما يصحبهما من لطف الله ورحمته، ومثل ذلك قد وقع كثيرًا مع الأنبياء والصالحين.

قال الشوكاني: " إنَّمَا قيَّد – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِذَلِكَ لأنَّ الضَّراء ربما كانت نافعةً آجلاً أو عاجلاً فلا يليق الاستعاذة منها، أي: مطلقًا، ووصف الفتنة بالمضلة لأنَّ من الفتن ما يكون من أسباب الهداية، وهي بهذا الاعتبار مما لا يستعاذ منه" [3].

وقيل: إن القول بأنَّ المراد أن يصاب بضراء غير مضرة غير صحيح، لأنَّ المطلوب ليس شوقًا بحيث يكون ضراء، ولذا دخل غير عليها ثم

---

(1) لم أقف على قائله.

(2) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض) ط: الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م. جـ١٩٣٣/٦.

(3) نيل الأوطار للشوكاني، جـ٣٤٣/٢.

وصفها بمضرة ليفيد أنَّه لا تضره الضراء، وحاصل المعنى: إني أسألك شوقًا لا يضرني في بدني بأن أفعل مالا طاقة لي به، ولا في قلبي بأن تغلب علي الجذبة بحيث أخرج عن طور عقلي، فيفوتني مرتبة الجمع، ولذا قال: (وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ) لأنَّ الفتنة تعم ما يؤدي إلى الهلاك الحسي والمعنوي، والمضلة ما يوجب الانحراف عن الطريق القويم والصراط المستقيم[1].

وقيد النظر باللذة؛ لأنَّ النظر إلى الله تعالى إما نظر هيبة وجلال في عرصات القيامة، وإما نظر لطف وجمال في الجنة ليؤذن بأن المطلوب هذا[2].

ولننظر كذلك في هذا الحديث الذي رواه أَبو هُرَيْرَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: **«اللهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»**[3].

نلاحظ تلك المطابقة بين الاستعاذة بالرضا من السخط، وبالمعافاة من العقوبة، ثم نجد الإجمال بعد التفصيل، فبعد أن استعاذ برضا الله من سخطه وبمعافاته من عقوبته، أجمل فاستعاذ بصفات الجمال من صفات الجلال، فقال: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ).

---

(1) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح للهروي، جـ٥/١٧٣٦.

(2) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي، جـ٦/١٩٣٣.

(3) رواه مسلم في صحيحه باب: ما يقال في الركوع والسجود حديث رقم (٢٢٢) جـ١/٣٥٢.

يقول الخطابي: " قلت في هذا الكلام معنى لطيف وهو أنَّه قد استعاذ بالله وسأله أن يجيره برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته، والرضا والسخط ضدان متقابلان، وكذلك المعافاة والمؤاخذة بالعقوبة، فلما صار إلى ذكر ما لا ضد له وهو الله –سبحانه– استعاذ به منه لا غير، ومعنى ذلك الاستغفار من التقصير في بلوغ الواجب من حق عبادته والثناء عليه" [١].

ثم نجد حسن المقطع أو حسن الختام في قوله: (لَا أُحْصِي ثناء عليك أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ) ففيه اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء، وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته، وفيه رد للثناء إلى الجملة دون التفصيل، فوكل الحصر والتعيين إلى الله تعالى المحيط بكل شيء جملة وتفصيلا، وكما أنَّه لا نهاية لصفاته لا نهاية للثناء عليه لأنَّ الثناء تابعٌ للمُثنَى عليه، وكل ثناء أُثني به عليه وإن طال وكثر وبولغ فيه فقدر الله أعظم وصفاته أكثر وفضله أوسع [٢].

وفيه كذلك ترق من الأفعال إلى منشئها، مشاهدة للحق وغيبة عن الخلق، والتوجه بالكلية إلى الله، وقطع الالتفات عما سواه، وإفراده بالاستعانة وغيرها [٣].

---

(١) معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود للخطابي، المطبعة العلمية، حلب، ط: الأولى ١٣٥١هـ – ١٩٣٢م جـ١/٢١٤.

(٢) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي – دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثانية، ١٣٩٢ جـ٤/٢٠٤.

(٣) ينظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، تحقيق: طه عبد الرؤف سعد، مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ط: الأولى، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م جـ٢/٥٠

وبدأ في هذا الحديث بالرضا، وفي رواية بدأ بالمعافاة ثم بالرضا، وإنما ابتدأ بالمعافاة من العقوبة لأنَّها من صفات الأفعال كالإماتة والإحياء، أما الرضا والسخط فمن صفات الذات، وصفات الأفعال أدنى مرتبة من صفات الذات، فبدأ بالأدنى مترقيًا إلى الأعلى، ثم لما ازداد يقينًا وارتقاءً ترك الصفات وقصر نظره على الذات فقال: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ)، ثم ازداد قربًا استحيا معه من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء فقال: (لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ)، ثم علم أن ذلك قصور فقال: (أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ) وأما على الرواية الأولى فقدم الاستعاذة بالرضا من السخط؛ لأن المعافاة من العقوبة تحصل بحصول الرضا، وإنما ذكرها لأن دلالة الرضا على المعافاة من العقوبة دلالة تضمن، فكنى عنها أولا، ثم صرح ثانيا، ولأنَّ الراضي قد يعاقب للمصلحة أو لاستيفاء حق الغير [1].

ومما سبق ندرك أن المحسن البديعي له دورٌ في إقامة المعنى، فقد تكون الحاجة إليه ماسة بحيث يكون في العدول عنه عقوقٌ للمعنى وإخلالٌ به، وإدخالُ الوحشة عليه كما نص على ذلك الإمام عبد القاهر [2].

فتلك المحسنات البديعية لم تكن فضولا من القول، ولم تأت لمجرد الزينة وإنما دعاها المعنى، دعاها دون غيرها من الألفاظ، فإذا استقرت في مواضعها، كان للمعنى جلاءٌ وبيانٌ، وللكلام فضلٌ وتأثيرٌ، والبديع ليس أقل

---

(1) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م. تحقيق: طاهر أحمد الزاوى – محمود محمد الطناحي، جـ٢/٢٣٢.

(2) ينظر: أسرار البلاغة تحقيق: محمود شاكر– مطبعة المدني بالقاهرة، ص١٤.

شأنًا أو أدنى منزلةً من البيان والمعاني، إنَّما هو بنفس منزلتهما بل ربما سبقهما [1].

(1) ينظر: فن البديع د/عبد القادر حسين، دار الشروق، ط:الأولى١٤٠٣هـ.١٩٨٣م. ص١١.

المبحث الثالث

المحسن البديعي وأثره في تتميم المعنى وتأكيده في الأدعية النبوية

في المبحث السابق كان الحديث عن دور المحسن البديعي في إقامة المعنى ومطابقته لمقتضى الحال، وفي هذا المبحث أعرض لأثره في تتميم المعنى وتأكيده، والفرق بين هذا المبحث والذي سبقه؛ أنَّ هذا يعنى بدراسة المحسن البديعي الذي له أثر في تتميم المعنى وتأكيده وقطع الإيهام وزيادة الفائدة، لكن لا يترتب على حذفه خلل أو اضطراب، أما السابق فكان الحديث فيه عن المحسن البديعي الذي يكون به قوام المعنى، والذي يترتب على حذفه خلل المعنى واضطراب الكلام.

ومن شواهد هذا الضرب، ما رواه أَبِو هُرَيْرَةَ- رضي الله عنه-، من أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَقُولُ في سجوده: **(اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ، وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ)** [1].

ففي التعبير بقوله- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ) ما يغني عما ذكر بعده من قوله: (دِقَّهُ، وَجِلَّهُ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ) فتلك المحسنات البديعية والمتمثلة في المطابقة بين قوله: دقه وجله، وبين أوله وآخره، وبين علانيته وسره، كان يمكن الاستغناء عنها لدخولها في عموم قوله: (كله) لكنَّها لذة المناجاة التي دفعت النبي – صلى الله عليه وسلم- إلى هذا الإطناب لاسيما وأنَّه في صلاته، بل وفي السجود كما هو

([1]) رواه مسلم في صحيحه، باب: ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (٤٨٣) جـ١/٣٥٠.

وارد في الحديث، وتلك هي الحالة التي يكون فيه العبد أكثر قربًا من ربه، كما قال –صلى الله عليه وسلم–: **(أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ)**[1] فجدير بالعبد أن يكثر من دعائه ويطيل في مناجاته حالة سجوده، وأن يستحضر كل ذنوبه صغيرها وعظيمها علانيتها وسرها أولها وآخرها، فإن الإكثار من الدعاء في تلك الحالة مظنة للقبول، كما أن في إطالة الدعاء والسجود بين يدي الله إشعارا بكمال الخضوع والتسليم له تعالى، بالإضافة إلى ذلك فإن تلك الزيادة أفادت توكيد الدعاء.

يقول الإمام النووي – رحمه الله–: " وفيه توكيد الدعاء وتكثير ألفاظه وإن أغنى بعضها عن بعض"[2].

فقد فصل بهذا المحسنات ما أجمله في قوله: " اغفر لي ذنبي كله" والتفصيل بعد الإجمال أوقع وآكد [3].

وقدَّم الدق على الجل؛ لأن السائل يترقى في مسألته، ولأنَّ الكبائر تنشأ غالبًا من الإصرار على الصغائر وعدم المبالاة بها، فكأنها وسائل إلى الكبائر ومن حق الوسيلة أن تتقدم، والتعبير بقوله:(وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ) لقصد الإحاطة، والمقصود بالسر في قوله: (وَعَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ) ما خفي على الناس، وإلا فالسر والعلانية عند الله سواء[4].

([1]) رواه مسلم في صحيحه، باب: ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (٤٨٢) جـ١/٣٥٠.

([2]) شرح صحيح مسلم للإمام النووي، جـ٤/٢٠١.

([3]) شرح سنن أبي داود لبدر الدين العيني، تحقيق: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد – الرياض، ط: الأولى١٤٢٠هـ –١٩٩٩م. جـ٤/٨٩.

([4]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، جـ٢/٧٢١.

ومن شواهده كذلك ما رواه أَبو بُرْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: **(اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جَدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**.

فقوله صلى الله عليه وسلم:**(وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي)** يغني عن هذه المحسنات الواردة في الحديث، فالله تعالى عالم بسائر أحواله من جده وهزله وخطئه وعمده وسره وعلانيته، وما قدم وما آخر، ولكنَّه- صلى الله عليه وسلم- أراد الاستقصاء والشمول بذكر كل الأحوال، فلجأ إلى الطباق بذكر الشيء وضده، وفي هذا ما يدل على حرصه الشديد على مغفرة ذنبه، وإن كان الله – تبارك وتعالى- قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وفيه كذلك ما يدل على خوفه الشديد من ربه وتوقيره له وخشيته منه، ولذا وجدناه ينص على الخطأ والعمد، مع أن ما وقع من العبد على سبيل الخطأ لا يؤاخذ به، مصداقا لقوله تعالى: (**وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**) [الأحزاب/٥] إلا أنه -صلى الله عليه وسلم- لما كان يريد مقام القرب من ربه يُحمِّل نفسه تبعة الخطأ، ثم إنَّه – صلى الله عليه وسلم- حاشاه أن يتعمد الذنب، ومع ذلك ينص على طلب المغفرة منه على سبيل الاحتراز، وتتجلى خشية النبي من ربه وتواضعه وخوفه من أن يؤاخذ بذنبه في قوله:(وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي) إذ المعنى: أن جميع ما ذكر من الذنوب والعيوب موجود عندي، وأنا متصف بجميع هذه الأشياء،

فاغفر لي، قاله – صلى الله عليه وسلم– تواضعًا منه وهضمًا لنفسه، أو أنه عد ترك الأولى وفوات الكمال ذنبًا [1].

كما يتجلى هذا التواضع والخوف من الذنب في تكراره لقوله: (وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي) فمع أنه استقصى كل الأحوال التي تعتري العبد كما مر، إلا أنَّه ربما خشي أن يكون قد نسي حالة فأتى بهذا التعبير ليشمل كل ما عساه أن يكون نسيه، إنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– بهذا الدعاء يجلي لنا معنى العبودية في أبهى صورها وأكمل مظاهرها، كما أنه يربي أمته ويعلمها.

قال العيني: " هذا إرشاد لأمته وتعليم لهم وهو –صلى الله عليه وسلم– معصوم عن الذنوب جميعها قبل النبوة وبعدها، ويحتمل أن يكون المراد ما قدم الفاضل، وأخر الأفضل" [2].

فهذه الدعوات والتضرعات قيام بحق وظيفة العبودية، واعتراف بحق الربوبية، لتقتدي به في ذلك أمته، ويسلكوا سبيله، فتستجاب دعوتهم، وتقبل توبتهم [3].

ومن الشواهد التي جاء فيه المحسن البديعي لقصد تتميم المعنى وتأكيده قوله صلى الله عليه وسلم من دعاء طويل: **(اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فَوَاتِحَ الْخَيْرِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ، وَالدَّرَجَاتِ الْعُلَى مِنَ الْجَنَّةِ**

([1]) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، جـ٥/١٧٢٠.

([2]) عمدة القاري، جـ٢٣/٢٠.

([3]) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م. جـ٧/٤٨.

آمِينَ)[1] فقوله صلى الله عليه وسلم: (اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فَوَاتِحَ الْخَيْرِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ) كناية عن تمام الخير، فهذه الجملة عامة وجامعة لكل أبواب الخير، ثم جاء المحسن البديعي في قوله:(وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ وَظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ) ليؤكد على هذا المعنى وليفيد الإحاطة والشمول.

ومن ذلك أَيْضًا حَدِيث عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ لَهَا: « **يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِجَوَامِعِ الدُّعَاءِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ)**[2]. فقوله صلى الله عليه وسلم (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ) وقوله: (وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ) يشمل العاجل والآجل من الخير والشر، كما يشمل ما علم وما لم يعلم، فهذا داخل في عموم قوله:(كله) إذ المراد سائر أنواع الخير وجميع وجوهه [3].

لكنَّ المحسن البديعي هنا أكسب المعنى قوة، وزاد في تأكيده، فهو بمنزلة التفصيل بعد الإجمال.

ولنتأمل كذلك قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ابن عباس– رضي الله عنه– **قَالَ «كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَدْعُو**

([1]) الدعاء للطبراني باب: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو به في سائر نهاره، حديث رقم (١٤٢٢) ص٤٢١.

([2]) رواه ابن ماجة في سننه، باب: الجوامع من الدعاء، حديث رقم (٣٨٤٦) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، جـ٢/١٢٦٤.

([3]) ينظر: التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي، مكتبة الإمام الشافعي – الرياض، ط: الثالثة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م. جـ١/٢٠٧.

يَقُولُ: رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رب اجعلني لك شاكراً، لك ذاكراً، لك راهباً، لك مطواعاً، لك مخبتاً، إليك أواها منيباً، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري). نجد المقابلة بين قوله: أعني وقوله: ولا تعن علي، وبين قوله: أنصرني وقوله: ولا تنصر علي، وكذا بين قوله: أمكر لي، وقوله: ولا تمكر علي، وتلك المقابلة مقصود بها تأكيد الدعاء باستجلاب ما فيه نفع والاستعاذة مما فيه ضر، فإنَّ من عون الله للعبد أن لا يعين عليه أحدًا، ومن نصره له أن لا ينصر عليه أحدًا، كذا من مكره له أن لا يمكر به ولا يمكر لأحد عليه.

ونسبة المكر إلى الله تعالى على سبيل المشاكلة، قَالَ الطِّيبِيُّ: " المكر: الخداع، وهو من الله إيقاع بلائه بأعدائه من حيث لا يشعرون، وقيل: هو استدراج العبد بالطاعة فيتوهم أنَّها مقبولة وهي مردودة " [1].

ونجد كذلك في الحديث الشريف الجناس بين توبتي وحوبتي، في قوله: (رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي) والحوبة قيل هي مصدر حُبْتُ أَيْ أَثِمْتُ، تَحَوَّبَ حُوبَةً وَحُوبًا وَحَابَةً وَالْحُوبُ بِالضَّمِّ، وَالْحَابُ: الْإِثْمُ، سُمي بذلك لكونه مزجورًا عنه، إذ الحوب في الأصل لزجر الإبلِ، وذكر المصدر دون الاسم وهو الْحُوبُ؛ لأن الاستبراء من فعل الذنب أبلغ من الاستبراء من نفس الذنب، وقيل استعمل المصدر مراعاة للسجع [2].

([1]) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي، جـ٦/١٩٢٥.

([2]) ينظر: مرقاة المفاتيح ٥/١٧٢٤.

والجملة الثانية مؤكدة كذلك للأولى، فمن ثمرات التوبة مغفرة الذنوب، فالتوبة تجب ما قبلها، وقد وقال صلى الله عليه وسلم: **(التائب من الذنب كمن لا ذنب له)** [١].

والغسل كناية عن الإزالة بالكلية بحيث لا يبقى منه أثر [٢].

ثم نجد السجع بين(شاكرا وذاكرا)، وقدم الجار والمجرور في قوله: (لك شاكراً، لك ذاكراً، لك راهباً، لك مطواعاً، لك مخبتاً، إليك أواهًا منيباً) للاهتمام والاختصاص، أو لتحقيق مقام الإخلاص [٣].

والأصل في قوله: (لك مخبتًا) أن يقول: إليك مخبتا، لكنه أقام " اللام " مقام " إلى " لقصد الاختصاص[٤].

ونلاحظ ترك العطف في قولة –صلى الله عليه وسلم–: (رب اجعلني لك شاكراً، لك ذاكراً، لك راهباً، لك مطواعاً، لك مخبتاً، إليك أواها منيباً) ومجيء العطف في قوله: (رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، واهد قلبي، واسلل سخيمة صدري) فأما الترك فللتعداد والإحصاء؛ ليدل علي أن ما كان لله غير معدود، ولا داخل تحت الضبط، فينعطف بعضها علي بعض، ولهذا قدم الصلات علي متعلقاتها. وأما الإتيان بالعاطف فيما كان للعبد، فلانضباطه وحصره [٥].

---

(١) رواه ابن ماجة، باب: ذكر التوبة، حديث رقم(٤٢٥٠) جـ٢/١٤١٩.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي، جـ٦/١٩٢٦.

(٣) ينظر: مرقاة المفاتيح ٥/١٧٢٣.

(٤) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي، جـ٦/١٩٢٦.

(٥) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي، جـ٦/١٩٢٦.

وإنما اكتفي في قوله:" إليك أواهاً منيب " بصلة واحدة ، فلم يقل: إليك أواها إليك منيبا؛ لكون الإنابة لازمة للتأوه ورديفاً له، فكأنهما شيء واحد [١].

وبين توبتي، حوبتي، دعوتي، حجتي، سجع جعل العبارة أكثر عذوبة وسلاسة، وهذا بدوره له أثر في ثبوت المعنى وتمكنه لدى السامع.

وإذا نظرنا إلى تلك الأحاديث السابقة نجد أنها خطاب تعليمي في المقام الأول، فالنبي – صلى الله عليه وسلم– يرشد من خلالها أمته، ويعلمهم الطريقة التي ينبغي اتباعها في الدعاء والتضرع إلى الله، والمقام التعليمي الأولى فيه التفصيل والإطناب وبسط الكلام، حتى تعم الفائدة ويتمكن المعنى، ومن ثم استعملت هذه المحسنات لاسيما المطابقة والمقابلة بما فيهما من نص على الأشياء وأضدادها للقيام بهذا الدور المتمثل في التعليم والإرشاد، إنَّها تعلمهم كيفية المناجاة والدعاء والثناء على الله الذي يستحضر به العبد قلبه، ويستشعر به لذة القرب والمناجاة.

ولعل قائلًا يقول: إن الخطاب التعليمي هو أدنى أنواع الخطاب بلاغة، وفق ما ذهبت إليه نظرية أنواع الأساليب، وهي نظرية غربية وضعت الأسلوب التعليمي نموذجًا للنمط المتدني من الأساليب؛ لما يتسم به من وضوح، وإيجاز، وشرح، وبعد عن الغموض، واستخدام للأسلوب المهذب المركز الخالي من الزينة والزخرفة [٢].

ويجاب عليه بأن الخطاب النبوي خطاب ذو تأسيس تشريعي يتجاوز العصور بما يقتضيه هذا التجاوز من تغير ظروف عملية التلقي وملابساته،

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن للطيبي، جـ٦/١٩٢٦.

(٢) السياق وتوجيه دلالة النص د. عيد بلبع، ص٤١، ٤٢.

واجتماع البعد الجمالي مع غايتي الإقناع والتعليم أمر ممكن، فالغاية التعليمية المتعلقة بالتشريع في الحديث النبوي الشريف قوامها الدقة والإتقان والإحكام، ومتى تحقق التناسب بين الموضوع والأسلوب تحقق وجه من أوجه البعد الجمالي، فالجمال هنا هو جمال التناسب بين موضوع الحديث والإيجاز الأسلوبي الذي صيغ فيه، وما يحقق هذا التناسب من تركيز في بناء التراكيب بالوسائل الأسلوبية المختلفة، يضاف إلى هذا أن البعد التشريعي في الحديث النبوي يستلزم الدقة في الصياغة ولن تتوفر الدقة والإحكام إلا بالوسائل المحققة لذلك، ومن هنا يصبح البحث في بلاغة الحديث هو بحث في الكيفية الأسلوبية التي تحققت بها الدقة والإحكام وصرامة تحديد المواقف، وليس هناك شك في أنَّ هذه غاية تعليمية بالدرجة الأولى تقصد إلى الإيضاح والإفهام [١].

(١) المرجع السابق، ص٤٧

المبحث الرابع

المحسن البديعي وأثره في تحقيق التماسك اللفظي والترابط الدلالي

مما ينبغي التنبه إليه أن المحسن البديعي يجب أن لا يدرس بمعزل عن النص، وقد وقع متأخرو البلاغيين في هذا الخطأ مما دفعهم إلى اعتبار المحسنات البديعية زينة لفظية يقصد بها توشية الكلام وتحسينه، فالمحسن البديعي لا يظهر أثره في تحقيق التماسك اللفظي والترابط الدلالي إلا من خلال دراسته تحت مظلة النص وباعتباره جزءًا من أجزائه [١].

والوقوف بالمحسن البديعي عند حدود الجملة أو البيت من الشعر بحيث لا يتجاوزه إلى ما سواه، وحصر وظيفته في الزخرفة وطرافة اللعب بالأصوات، يقف حجر عثرة أمام تذوق النص وإدراك العلاقات المتعانقة وملاحظة باطن النص من ظاهره، وكيف أن ظاهره يهدي إلى باطنه، ليبرز من خلال ذلك كله روعة الفن وجماله وجلاله [٢].

وسأحاول من خلال هذا الفصل إبراز ما للمحسن البديعي من أثر في تحقيق الترابط بين أجزاء النص، وكيف ساعد ذلك على تجلية المعنى وإظهاره بالمظهر اللائق.

---

(١) ينظر: البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د/ جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٣١ وما بعدها.

(٢) ينظر: نحو أجرومية للنص الشعري دراسة في قصيدة جاهلية بحث للدكتور/ سعد مصلوح، مجلة فصول، المجلد: العاشر، العددان: الأول والثاني، يوليو أغسطس١٩٩١م. ص١٥٩، والبحث منشور على موقع دار المنظومة.

ولنتأمل في ذلك هذا الحديث الذي رواه عَبْدُ اللهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: **(اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ)**[1] نجد مراعاة النظير بين الزوال والتحول والفجاءة، ومجيئها على هذا الترتيب محقق للتماسك بين عناصر النص والترابط بين الجمل، ومعين على إيصال المعنى ذلك أن زوال النعمة مؤد إلى تحول العافية، إذ عافية البدن مرهونة بوجود النعمة على اختلاف أشكالها وتنوعها، سواء كانت هذه النعمة متمثلة في صحة البدن وسلامته من الآفات وخلوه من الأمراض، أو كانت متمثلة في المال الذي به قوام الحياة وتنال به الرغائب وتقضى به الحاجات، أو متمثلة في ولد تقر به العين ويكون عونًا لوالديه، إلى غير ذلك من النعم، وبزوال هذه النعم لا شك تتحول العافية، فبفقد الصحة مثلا يصاب الإنسان بالآلام والتعب، وبفقد المال يصاب بالهم والحزن، وبفقد الولد يفقد الأمل، وهكذا فوجود العافية مرهون بوجود النعمة، وتحول العافية مترتب على زوال النعمة، ثم قد يجمع الله للعبد بين النعمة والعافية، لكنه بدلًا من أن يشكر الله عليهما، ويؤدي حق المنعم فيهما، إذا به يستعملهما فيما يغضبه، فيفاجئه الله بانتقامه، وينزل به عقابه، ويسلب منه تلك النعم؛ ليثوب إلى رشده، ويرجع عن غيه، ولذا وجدنا النبي- صلى الله عليه وسلم- بعد أن استعاذ من زوال النعمة وتحول العافية، يتبع ذلك بالاستعاذة من فجاءة النقمة، وربما استدرج الله العبد بزيادة النعم، ومتعه بصحة البدن، وصرف عنه سائر النقم، لينزل به عذابه في الآخرة لسخطه عليه، إذ ليست النعم دليلًا على رضا الله على

([1]) رواه مسلم في صحيحه باب: أكثر أهل الجنة الفقراء وأكثر أهل النار النساء، حديث رقم (٢٧٣٩) جـ٤/٢٠٩٧.

العبد، ومن هنا وجدنا النبي يستعيذ بالله من أن ينزل به سخطه فيتقلب في النعم وهو مستدرج بها.

وإلى جانب مراعاة النظير، نجد الطباق بين نعمتك ونقمتك، بما يشعر به من المقارنة بين الحالين، والموازنة بين الأمرين، فينتبه العبد بذلك لما في يديه من نعم فيشكر ربه عليها، ويستعيذ من زوالها، ومن حلول النقمة محلها.

وفي الجمع بين مراعاة النظير والطباق لطيفة؛ إذ المناسبة حاصلة في مراعاة النظير بالجمع بين اللفظ وما يوافقه ويلائمه، وحاصلة في الطباق بالجمع بين الأضداد.

ولعل هذا من قبيل الجمع بين المؤتلف والمختلف، الذي جعله الباقلاني طريقة من طرق التعبير في القرآن، وعده وجهًا من وجوه إعجازه [1].

ثم هناك السجع في **(نِعْمَتِكَ، عَافِيَتِكَ، نِقْمَتِكَ)** وهو مساعد كذلك على هذا الترابط وتلك المناسبة؛ إذ اجتمع به مع التناسب في الألفاظ التناسب في الفواصل.

ونجد هذا الترابط والتماسك في قَوْلُهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: **(اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا ينفع ومن قلب لايخشع ومن نفس لاتشبع)** [2] فهناك تشابه

---

(1) ينظر: إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، ط: الخامسة، ١٩٩٧م. ص٣٠١.

(2) رواه مسلم في صحيحه بَابُ: التَّعَوُّذِ مِنْ شَرِّ مَا عُمِلَ وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ يُعْمَلْ، حديث رقم (٢٧٢٢) جـ٤/٢٠٨٨.

الأطراف في قوله: (وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا) والدعاء هنا للنفس، والنفس لا يعلم دواخلها ولا يستطيع أن يزكيها إلا خالقها، فهو وليها والقادر على تقويم اعوجاجها وتزكيتها، ولذا لما دعا لها بالتزكية أتبع ذلك بالثناء على من يزكيها.

وقوله: (أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا) ليس معناه أن هناك من يمكنه تزكية النفس غير الله وأن الله هو خير من يزكيها، وإنما المقصود به الثناء عليه تعالى بدليل قوله: (أنت وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا) فلا يملك تزكيتها إلا من هو مالك لها.

ثم نجد السجع في قوله: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع) والسجع هنا إلى جانب ما فيه من نغم رائع، فإنه مرتب ترتيبًا أشد روعة، فبدأ النبي – صلى الله عليه وسلم– بالاستعاذة من العلم الذي لا ينفع، فمثل هذا العلم لا خير فيه، ولا طائل منه، والجهل خير من العلم الذي لا ينتفع به صاحبه، إذ الجاهل معذور بجهله، أما العالم الذي لم يوافق عمله علمه فلا عذر له بعد أن قامت عليه الحجة، والعلم الذي لا ينفع يورث القلب غلظة وقسوة ويذهب الخشية والخشوع، أما العلم النافع فإنه يورث صاحبه خشيةً وخشوعًا مصدقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر/٢٨].

ولذا وجدنا النبي– صلى الله عليه وسلم– بعد أن استعاذ من العلم الذي لا ينفع استعاذ من القلب الذي لا يخشع، لأنَّ الخشوع كما أسلفت إنما هو نتيجة وثمرة للعلم النافع، وعدم الخشوع ثمرة للعلم غير النافع، ثم استعاذ النبي أخيرًا من النفس التي لا تشبع، وإذا نحن تأملنا في هذه الدعوة وجدناها

مترتبة كذلك على ما قبلها، فالقلب إذا لم يكن خاشعًا لربه متعلقًا به، تعلق بنفسه وشهواتها وملذاتها، فانصرف من العبودية لربه إلى العبودية لنفسه وشهواته، ومهما حاول إرضاء ذلك المعبود فلن يرضى، وتلك عقوبة من الله لمثل هذا العبد الذي تخطَّفته الأهواء وتجاذبته الشهوات.

ولننظر كذلك في هذا الحديث الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنَّهُ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ لَا يَكَادُ يُفَارِقُهُ يَقُولُ: **(اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَخْشَاكَ كَأَنِّي أَرَاكَ أَبَدًا حَتَّى أَلْقَاكَ، وَأَسْعِدْنِي بِتَقْوَاكَ، وَلَا تُشْقِنِي بِمَعْصِيَتِكَ، وَخِرْ لِي فِي قَضَائِكَ، وَبَارِكْ لِي فِي قَدَرِكَ حَتَّى لَا أُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ، وَلَا تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ، وَاجْعَلْ غِنَايَ فِي نَفْسِي، وَأَمْتِعْنِي بِسَمْعِي وَبَصَرِي، وَاجْعَلْهُمَا الْوَارِثَ مِنِّي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي، وَأَرِنِي فِيهِ ثَأْرِي تُقِرَّ بِذَلِكَ عَيْنِي)** [1] نجد تماسكا بين أجزاء النص أدى بدوره إلى الترابط الدلالي، وقد كان للمحسن البديعي أثر في تحقيق هذا التماسك اللفظي والترابط الدلالي، فقد اجتمع في هذا الحديث عدة محسنات هي: السجع بين الكلمات: أخشاك، أراك، ألقاك. والمقابلة بين قوله: (وَأَسْعِدْنِي بِتَقْوَاكَ،) وقوله: (وَلَا تُشْقِنِي بِمَعْصِيَتِكَ) والعكس والتبديل بين قوله: (حَتَّى لَا أُحِبَّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ) وقوله: (وَلَا تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ)، وتلك المحسنات ليست متكلفة وإنما هي من مقتضيات المعنى، فقد بدأ النبي دعاءه بطلب الخشية، والخشية على درجات أعلاها أن يراقب العبد ربه في كل ما يأتي وكأنه يرى ربه، لأنه وإن لم يكن يرى ربه فإن الله يراه، فهو ناظر إليه ومطلع عليه، ولا يخفى عليه شيء من أمر العبد، ولذا لما دعا

([1]) الدعاء للطبراني، باب: ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو به في سائر نهاره، حديث رقم (١٤٢٤) ص٤٢١.

النبي بالخشية أتبع ذلك بقوله: (كَأَنِّي أَرَاكَ)، ثم إن هذه الخشية قد تكون من الأمور العارضة التي سرعان ما تزول، أو ربما أنعم الله على عبده بالخشية والخوف منه، ولكن لأمر ما يفتن في دينه ويعرض عن ربه، ولذا أتم النبي دعاءه بقوله: (أَبَدًا حَتَّى أَلْقَاكَ)، فإذا ما داوم العبد على طاعة ربه وخشيته بتوفيق من الله له تحولت تلك الطاعة وهذه الخشية من أمر يتكلفه ويحمل نفسه عليه إلى أمر يجد لذته وسعادته وراحته في القيام به ولا يطيق تركه ومفارقته، وهذا مصدقا لقوله –صلى الله عليه وسلم– عن الصلاة **(يَا بِلَالُ أَقِمِ الصَّلَاةَ أَرِحْنَا بِهَا)** [1] وقوله: **(وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ)** [2] ولذا قال: (وَأَسْعِدْنِي بِتَقْوَاكَ) والمقابلة في قوله: (وَأَسْعِدْنِي بِتَقْوَاكَ، وَلَا تُشْقِنِي بِمَعْصِيَتِكَ) بينت مدى ما للخشية والتقوى والعبادة بصفة عامة من أثر في سعادة العبد، وإن كان ظاهرها تكليف ومشقة، فيكفيه سعادة أن يكون في معية ربه، ومدى ما للمعصية من أثر في شقاء العبد لشؤمها، فيكفيه شقاء بعده عن ربه.

وأما العكس والتبديل في قوله: (حَتَّى لَا أُحِبُّ تَعْجِيلَ مَا أَخَّرْتَ وَلَا تَأْخِيرَ مَا عَجَّلْتَ) فإنه جاء تعقيبًا على قوله: (وَخِرْ لِي فِي قَضَائِكَ، وَبَارِكْ لِي فِي قَدَرِكَ) وقد دل على التسليم الكامل والرضا التام بما قضاه الله، لا سيما إذا علم العبد أن هذا اختيار الله له، والتسليم لما قضاه الله ثمرة من ثمار الخشية والتقوى، فإن العبد إذا خشي ربه واتقاه حق تقاه، لم يجد في نفسه حرجًا مما

---

(1) رواه أبو داوود في سننه، باب: صلاة العتمة، حديث رقم (٤٩٨٥) جـ٤/٢٩٦.

(2) رواه البيهقي في السنن الكبرى، باب: الرغبة في النكاح، حديث رقم(١٣٤٥٤) تحقيق/محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٤ هـ. ٢٠٠٣ م. جـ٧/١٢٤.

قضاه، فأول الحديث بمنزلة التنظير، وهذه العبارة بمنزلة التطبيق، ذلك أن العبد قد يظن من نفسه الخشية والتقوى، فإذا ما تعرض للبلاء والفتن انسلخ من تلك الخشية والتقوى، بل ربما اعترض على قدر الله، فأحب تعجيل ما أخر أو تأخير ما عجل.

ومن هنا ندرك أن الخشية الحقيقية إنما تكون في التسليم لما أراده الله، بل في حب ما أراد، وتقديم مراده على مراد النفس، فإذا لزم العبد تلك الحالة رزق غنى النفس، فاستغنى بالله عما سواه، فهو لا يبالي بالدنيا أعطته أو منعته؛ لأنه يوقن بأن المعطي والمانع حقيقة هو الله، ولا يبالي بالناس رضوا أم سخطوا، ولا يبالي بالمال قل أم كثر، ولذا قال النبي عقب ذلك (وَاجْعَلْ غِنَايَ فِي نَفْسِي) ومن استغنى بالله عمن سواه متعه الله بعافية في بدنه، وبارك له في عقبه، ونصره على من ظلمه، وهذا ما أكد عليه آخر الحديث حيث قال –صلى الله عليه وسلم–: (وَأَمْتِعْنِي بِسَمْعِي وَبَصَرِي، وَاجْعَلْهُمَا الْوَارِثَ مِنِّي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ ظَلَمَنِي، وَأَرِنِي فِيهِ ثَأْرِي تُقِرَّ بِذَلِكَ عَيْنِي) وفي هذا الدعاء إشارة إلى أن العبد إذا لازم الخشية كان عبدا ربانيا وكان لله وليا مصدقا لقوله– صلى الله عليه وسلم–: **(إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)** [1].

([1]) رواه البخاري، باب: التواضع، حديث رقم (٦٥٠٢) جـ٨/١٠٥.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد...

فقد عشت من خلال هذا البحث مع لون من ألوان البيان النبوي الشريف وهو الدعاء، متأملًا ما اشتمل عليه من محسنات بديعية، وما كان لهذه المحسنات من تأثيرٍ على الأسلوب، ودورٍ في إقامة المعنى، وقد توصل هذا البحث إلى عدة نتائج يمكن إجمالها فيما يأتي:

- **أولا**– يلاحظ شيوع المحسنات البديعية في الأدعية النبوية بصورةٍ لافتةٍ وواضحةٍ عن غيرها من الأحاديث، مما يجعلها سهلة الحفظ، طيعة للسان، مريحة للآذان، باعثة للاطمئنان والسلام، منشطة للنفس والوجدان.
- **ثانيًا**– المحسنات البديعية في الأدعية النبوية لم تكن مجرد زخارف لفظية جاءت لتنميق الألفاظ بمعزل عن المعاني والتراكيب، بل إنَّها من مقومات المعنى وداعمة له، وبدونها يسقط المعنى ويتهاوى، وهي إلى جانب ذلك مؤثرة في النظم وبدونها يختل.
- **ثالثًا:** المحسن البديعي وسيلةٌ من الوسائل التي تساعد في إنجاح عملية التواصل بين المتكلم والمخاطب؛ ذلك أنه عامل من عوامل جذب الانتباه، كما أن فيه تجديدا للنشاط، ويؤثر في المشاعر، وهو لون من ألوان التفنن في الخطاب والتصرف في تشكيله.
- **رابعًا:** المحسنات البديعية تتسم بالجمال والتناغم والتوازي ومن طباع النفس السليمة الميل إلى كل ما هو جميل متناسق.

- **خامسًا:** ينبغي أن لا تستعمل المحسنات البديعية في الكلام استعمالًا عشوائيًا دون أن يستدعيها الحال ويتطلبها المقام، وإلا كان ضررها أكثر من نفعها، وكانت عبئًا على الألفاظ والمعاني، فتزيد الألفاظ قبحًا والمعاني غموضًا، وقد حذر الإمام عبد القاهر من سلوك هذا المسلك.

- **سادسًا:** للمحسن البديعي دور في إقامة المعنى، فقد تكون الحاجة إليه ماسة بحيث يكون في العدول عنه عقوقٌ للمعنى وإخلالٌ به، وإدخال الوحشة عليه كما نص على ذلك الإمام عبد القاهر.

- **سابعًا:** ينبغي أن لا يدرس المحسن البديعي بمعزلٍ عن النص، وقد وقع متأخرو البلاغيين في هذا الخطأ مما دفعهم إلى اعتبار المحسنات البديعية زينة لفظية يقصد بها توشية الكلام وتحسينه، فالمحسن البديعي لا يظهر أثره في تحقيق التماسك اللفظي والترابط الدلالي إلا من خلال دراسته تحت مظلة النص وباعتباره جزءًا من أجزائه.

- **ثامنًا:** الوقوف بالمحسن البديعي عند حدود الجملة أو البيت من الشعر بحيث لا يتجاوزه إلى ما سواه، وحصر وظيفته في الزخرفة وطرافة اللعب بالأصوات، يقف حجر عثرة أمام تذوق النص وإدراك العلاقات المتعانقة وملاحظة باطن النص من ظاهره، وكيف أن ظاهره يهدي إلى باطنه، ليبرز من خلال ذلك كله روعة الفن وجماله وجلاله.

فهرس المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الهيئة المصرية العامة للكتاب١٣٩٤هـ ١٩٧٤م.

٢- أسرار البلاغة تحقيق: محمود شاكر- مطبعة المدني بالقاهرة.

٣- أسرار البلاغة تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى،١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

٤- الأسلوبية والبلاغة العربية مقاربة جمالية، د/مسعود بودوخه، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن ٢٠١٧م.

٥- إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف – مصر، ط: الخامسة، ١٩٩٧م.

٦- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط: التاسعة ١٣٩٣هـ.١٩٧٣م.

٧- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، د/ جميل عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨- البديع والتوازي د/ عبد الواحد حسن الشيخ. مكتبة الإشعاع الفنية بالمنتزه، ط: ألأولى١٤١٩هـ. ١٩٩٩م.

٩- بغية الإيضاح د/عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب، ط: السابعة عشرة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م.

١٠- البلاغة العربية في فنونها البديع والبيان، د/ محمد علي سلطاني، دار العصماء، دمشق١٤٢٦هـ

١١- البيان والتبيين للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت١٤٢٣هـ.

١٢- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفورى، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣- التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي، مكتبة الإمام الشافعي – الرياض، ط: الثالثة، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

١٤- جمهرة اللغة لابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط: الأولى ١٩٨٧م.

١٥- جوهر الكنز لابن الأثير الحلبي، تحقيق/ محمد زغلول سلام. منشأة المعارف بالإسكندرية.

١٦- خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو ، دار ومكتبة الهلال، بيروت ٢٠٠٤م.

١٧- الخصائص لابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط:الرابعة.

١٨- دفاع عن البلاغة للزيات، عالم الكتب، ط: الثانية ١٩٦٧م.

١٩- دلائل الإعجاز تحقيق/محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، ط:الخامسة ٢٠٠٤م.

٢٠- ديوان ابن نباتة السعدي، دراسة وتحقيق/عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٣٩٧هـ١٩٧٧م.

٢١- ديوان أبي الفتح البستي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، تحقيق/ دريّة الخطيب و لطفي الصقال.

٢٢- ديوان أبي تمام. شرح الخطيب التبريزي، دار الكتاب العربي بيروت، ط: الثانية ١٤١٤هـ١٩٩٤م.

٢٣- ديوان الكميت، جمع وشرح د/محمد نبيل طريفي، دار: صادر، بيروت، ط:٢٠٠٠م.

٢٤- ديوان المتنبي، دار بيروت ١٤٠٣هـ١٩٨٣م.

٢٥- ديوان النابغة الجعدي، تحقيق د/ واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ط: الأولى١٩٩٨م.

٢٦- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، سلسلة الذخائر، دار المعارف، ط: الثانية.

٢٧- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى ١٤٠٢هـ. ١٩٨٢م.

٢٨- سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي.

٢٩- سنن أبي داوود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.

٣٠- سنن الترمذي تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ، مطبعة: مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط: الثانية ١٣٩٥هـ .١٩٧٥م.

٣١- السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق/محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثالثة، ١٤٢٤ هـ. ٢٠٠٣ م.

٣٢- السنن الكبرى للنسائي، تحقيق/ حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: الأولى ١٤٢١هـ. ٢٠٠١م.

٣٣- سنن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط: الثانية١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م.

٣٤- السياق وتوجيه دلالة النص، د/عيد بلبع، سلسلة سياقات، دار بلنسية للنشر والتوزيع، ط: الأولى١٤٢٩هـ٢٠٠٨م.

٣٥- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، تحقيق: طه عبد الرؤف سعد، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٣٦- شرح سنن أبي داود لبدر الدين العيني، تحقيق: أبو المنذر خالد بن إبراهيم المصري، مكتبة الرشد، الرياض، ط: الأولى١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣٧- الصبغ البديعي د/أحمد إبراهيم موسى، دار: الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٨هـ. ١٩٦٩م.

٣٨- صحيح البخاري تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط: الأولى،١٤٢٢هـ.

٣٩- صحيح مسلم تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٠- الطراز للعلوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط: الأولى١٤٢٣هـ

٤١- عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٢- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق. تحقيق/محمد محيي الدين عبد الحميد. دار الجبل، بيروت.

٤٣- العين للخليل بن أحمد تحقيق: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي. دار: الهلال.

٤٤- فن البديع د/عبد القادر حسين، دار الشروق، ط:الأولى١٤٠٣هـ.١٩٨٣م.

٤٥- الكاشف عن حقائق السنن الطيبي تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الرياض ط: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٦- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق/علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت١٤١٩هـ.

٤٧- مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للمباركفوري، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء، الجامعة السلفية بنارس الهند، ط: الثالثة ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م.

٤٨- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لأبي الحسن نور الدين الملا الهروي القاري، دار الفكر، بيروت. ط: الأولى ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

٤٩- مسند أبي يعلى تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط: الأولى١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م.

٥٠- مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

٥١- مشكل الحديث وبيانه لأبي بكر محمد بن فورك الأنصاري الأصبهاني، تحقيق: موسى محمد علي، عالم الكتب – بيروت، ط: الثانية، ١٩٨٥م.

٥٢- مصنف ابن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت. مكتبة الرشد، الرياض. ط: الأولى ١٤٠٩هـ.

٥٣- معالم السنن، شرح سنن أبي داود للخطابي، المطبعة العلمية، حلب، ط: الأولى ١٣٥١هـ ١٩٣٢م .

٥٤- المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.

٥٥- المفصل في علوم البلاغة العربية د/ عيسى علي العاكوب، منشورات جامعة حلب١٤٢١هـ. ٢٠٠٠م.

٥٦- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم. لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م.

٥٧- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي.

٥٨- المنهاج شرح صحيح مسلم للنووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثانية، ١٣٩٢هـ.

٥٩- نحو أجرومية للنص الشعري دراسة في قصيدة جاهلية بحث للدكتور/ سعد مصلوح، مجلة فصول، المجلد: العاشر، العددان: الأول والثاني، يوليو أغسطس١٩٩١م.

٦٠- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط: الأولى١٤٢٣هـ.

٦١- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى و محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية ، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٦٢- نيل الأوطار للشوكاني، تحقيق/عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر، ط: الأولى، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

٦٣- الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم. تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث، القاهرة، ط: الثالثة،١٩٩٩م.

٦٤- وصايا الأدباء والخلفاء والحكماء في العصر العباسي دراسة فنية د/ روناك توفيق علي النورسي، دار الكتب العلمية، بيروت.